كامل كيلاني

قصص علمية

مخاطرات أم مازن

رسوم : ماهر عبد القادر

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

obeikandl.com

obeikandl.com

١
فاتِحَةُ القِصَّةِ

مَا كَانَ أَسْعَدَهُ يَوْمًا، وَأَبْهَجَهُ احْتِفَالًا حِينَ خرجتْ «أُمُّ مازِنٍ» من لَفائِفِهَا؛ لِتَسْتَقْبِلَ الْحياةَ بقَلْبٍ طَرُوبٍ يَفيضُ بِشْرًا وأملًا، وقَدِ التَفَّ حَوْلَهَا أهلُها وعشِيرَتُها الأدْنَوْنَ، وَتَهافَتُوا إِلَى رُؤْيَتِها مُسْرِعِينَ من أقاصِي القَرْيَةِ؛ ليشترِكُوا في ذَلِكَ المِهْرَجانِ البهيجِ.

وكانت «أُمُّ مازِنٍ» أصغَرَ المَوْلُوداتِ التي نَجُبَتْ وترعرعَتْ في تلك القريَةِ الحافِلَةِ بأَهْلِيهَا من النَّمْلِ الأسْوَدِ الرَّمادِيِّ.

وقد فرِحَتْ ساكِناتُ القَرْيَةِ بـ «أُمِّ مازِنٍ» فرحًا عظِيمًا. وَكَانَتْ قريةُ النملِ مُعْجَبَةً بِوَسامَةِ هذهِ المَوْلودةِ، فرِحةً بما يَبْدُو عَلَى سِيمَاها من أَماراتِ النَّجابَةِ، مُؤَمِّلَةً فيها أَحْسَنَ تَأْمِيلٍ.

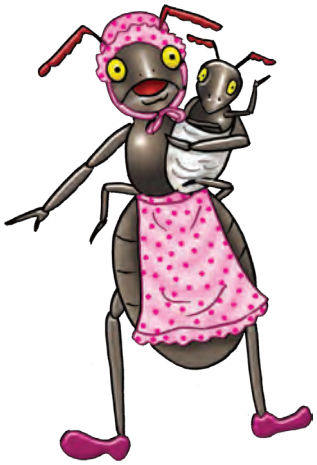

obeikandl.com

٢
بِنتُ الشَّيْصَبانِ

واقتربتْ منها «بِنْتُ الشَّـيْصَبانِ»، وهي أكبرُ نِمالِ القرية سِـنًّا، وأكثرُهُنَّ تَجْرِبَةً، وأقبلتْ على الطِّفْلةِ الناشِئَةِ تُداعِبُها، قائلةً:

«يا لَها مِنْ جَميلةٍ فاتِنَةٍ! لقدْ فاقَتْ ـ على صِغَرِها ـ بناتِ جِنْسِها حُسْنًا ومَلاحَةً. فَلْنُطْلِقْ عَلَيها مُنْذ الْيَوْمِ: «أُمَّ مازِنٍ»، ولْنُنادِها بذلكِ لنُكَرِّمَها بهذِهِ التَّكْنِيَةِ، ونُمَيِّزَها عَنْ رَفيقاتِها من بناتِ القريَةِ».

وكانَتْ «أمُّ مازِنٍ» ـ كإخْوَتِها جميعًا مِنَ النَّملِ ـ مِثالًا للنَّشـاطِ والجِـدِّ والمُثابَرَةِ، تَتَلألأُ في رأْسِـها الجميلِ عُيُـونٌ خَمْسٌ بَرَّاقَةٌ، ثِنْتَـانِ مِنْهـا كبيرَتَانِ على جانِبَيْ رَأْسِـها، وثلاثٌ صغيرَةٌ في وَسَـطِ جَبْهَتِها.

ولن يَفُوتَنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عن قَرْنَيْها الصَّغِيرَيْنِ النَّاتِئَيْن في رَأْسِها. ولعَلَّكمْ تَعْرِفونَ أنَّ القُرُونَ للنَّمْلِ كالْيَدَيْنِ للإنسانِ؛ فإنَّ كلًّا مِنْهَا يَصْلُحُ للَمْسِ الأشْياءِ.

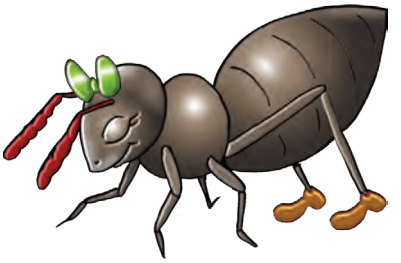

٣
فِي الطَّرِيقِ

خرجَتْ «أُمُّ مازِنٍ» منْ قَرْيَتِها لِلْمَرَّةِ الأولَى في حياتِهَا. ثُمَّ سارَتْ في طَريقِهـا ـ عائِـدَةً إِلَى بَيْتِهَـا ـ بعـد أن أَتَمَّـتْ نُزْهَتَهَـا. وما زالتْ تَمْشِـي مُتَّئِدَةً، بَطِيئَةَ السَّيْرِ في طريقٍ مَمْلُوءَةٍ بالحَصَى، وهي تَلْقَى في سبيلِهَا، من أَلْوانِ التَّعَبِ والعَناءِ، ما لا قِبَلَ لغيرِهَا باحتمالِهِ.

ولا عَجَبَ في ذَلِكَ؛ فإنَّ صِغارَ الحَصَى الَّتِي كانَتْ تَعْتَرِضُ «أُمَّ مازِنٍ» في طَرِيقِها، هي ـ على الْحَقِيقَةِ ـ جِبالٌ شاهِقَةٌ بالقِياسِ عَلَيْها!

انْظُـرُوا إليها وهي تَمْشِـي جادَّةً مُسْـرِعَةً في سـيْرِهَا على قَدْرِ ما تَسْتَطِيعُ أقدامُها النَّحِيفَةُ المُتناهِيةُ في الضَّآلَةِ. وتَأَمَّلُوا كَيْفَ تَلْمُسُ الأرْضَ بأحَـدِ قَرْنَيْهَا قَبْلَ أن تَخْطُوَ خُطْوَةً واحدةً. فهي تَتَحَسَّـسُ الأشْـياءَ بقَرْنِها الأيْمَنِ مَرَّةً، وبقَرْنِهَا الأيْسَـرِ مَرَّةً أُخْرَى، مُسْتَهِينَةً بـكلِّ ما تَلْقـاهُ في طريقِهَا مِـنَ العَقَبـاتِ والمَصاعِـبِ، مُتَقَدِّمَةً ـ في صَبْـرٍ ومُثابرَةٍ لا مَثيـلَ لَهُمَا ـ حتى تَبْلُـغَ غايَتَها، أو تموتَ دُونَها!

وكانَتْ «أُمُّ مازِنٍ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا، قائِلةً:

«يا لَها منْ طَرِيقٍ مُتْعِبَةٍ شاقَّةٍ! فليْسَ يَخْلُو مَكانٌ فيها من حُفْرَةٍ، أَوْ هاوِيَةٍ، أَوْ أُخْدُودٍ. وليْس أجْدَرَ مِنِّي بالأناةِ والحَذَرِ حتى أعودَ إلى قَرْيَتِي سالِمَةً!».

ولقد صدقَتْ «أُمُّ مازِنٍ» في مَا حدَّثَتْ نَفْسَهَا بِهِ، فقد كانَتِ الطَّرِيقُ الوَعْرَةُ المَخُوفَةُ تَتَطلَّبُ مَهارَةَ النَّمْلَةِ وحَزْمَهَا؛ لتَخْرُجَ منها ناجِيَةً من كلِّ سُوءٍ، فلا تُكْسَرَ إحْدَى أرْجُلِها، ولا تُصابَ بأيِّ عَطَبٍ.

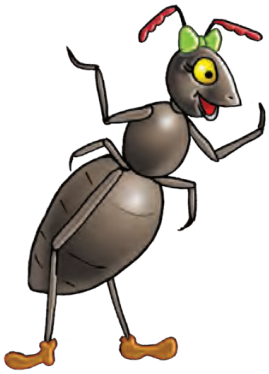

ولقد أصابَ وصدَقَ من سَمَّاها: نَمْلَةً. فهي ـ في الْحَقِّ ـ كثيرةُ التَّنَمُّلِ، دائِبَةُ التَّحَرُّكِ. فلا عَجَبَ إذا أطْلَقُوا عليْهَا هذا الاسْمَ الذي يَدُلُّ على الْحَرَكَةِ والنَّشاطِ!

ها هُوَ ذا جَبَلٌ تَتَسَلَّقُهُ «أُمُّ مازِنٍ» جادَّةً مُثابِرَةً ـ عَلَى ما تُحِسُّ به من تَعَبٍ نَهَكَ قُواهَا، وأضْنَى جِسْمَها ـ حتى تُدْرِكَ غايَتَها.

obeikandl.com

٤
الرَّفيقَتَانِ

وإنَّها لَتَسِيرُ جادَّةً، وقَدْ بَلَغَ بها الإعْياءُ كُلَّ مَبْلَغٍ، إِذْ لَمَحَتْ نَمْلَتَيْنِ ـ من بناتِ جِنْسِها ـ خَرَجَتَا منَ القَرْيَةِ لِلاحْتِطابِ، وقد حَمَلَتَا فَرْعًا صغيرًا من فُرُوعِ النَّباتِ، وهما عائِدَتانِ في طريقِهِمَا إلى الْبَيْتِ.

ولقد جَهَدَهُمَا حَمْلُ هَذَا الفرْعِ الصَّغِيرِ، وقَدِ اعتزَمَتَا أن تُصْلِحَا به إِحْدَى غُرَفِ القَرْيَةِ الَّتِي انهارَتْ في أثناءِ اللَّيْلِ. وكان ذلكَ الفرعُ ـ بالْقِياسِ إليْهِمَا ـ كأَنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ كبيرَةٍ!

وكانَتِ الحاطِبَتَانِ تَبْذُلانِ أقصى جُهْدَيْهِمَا لتَجُرَّاهُ، حتى ضَعُفَتْ قُواهُما، وتعذَّرَ عليْهِمَا أن تتقدَّمَا به خُطْوَةً واحِدَةً إلى الأمامِ. ولا عَجَبَ في ذلِكَ؛ فقد كان ـ على صِغَرِهِ ـ ثقيلًا، وكانتِ الأرضُ ـ الَّتِي تَدِبَّانِ عليْهَا ـ صَخْرِيَّةً.

فلمَّا رأَتْهُما «أُمُّ مازِنٍ» عَرَفَتْهُما، وأدركتْ ما تُعانِيانِ من جَهْدٍ، فتقدَّمَتْ إليهِمَا، قائِلَةً:

«كيف أنتُما؟ هَلُمَّا نتعاونْ على جَرِّ هذا الْحِمْلِ الثَّقيلِ!».

ولـم تُضِعْ «أُمُّ مـازِنٍ» وَقْتَها عَبَثًا، بل انضمَّـتْ إلى الحاطِبتَيْنِ، وعاوَنَتْ رَفيقَتَيْها عَلَى جَرِّ الفرعِ حتى بَلَغْنَ به ذِرْوَةَ التَّلَّةِ الصَّغيرَةِ العالِيَةِ.

ثُمَّ قالتْ «أُمُّ مازِنٍ» لِرَفيقَتَيْهَا:

«لقد أدَّيْتُ واجِبِي ـ يا رفيقَتَيَّ ـ فوَداعًا، وإلى اللِّقاءِ القَرِيبِ!».

فشكرَتَا لها ما بَذَلَتْ ـ في مُساعَدَتِهِمَا ـ من جَهْدٍ وعَناءٍ.

obeikandl.com

٥
المَطَرُ

ثُمَّ سارَتْ «أُمُّ مازِنٍ» في طريقِهَا حتى لَقِيَتْ جَمْهَرَةً من النَّمْلِ جادَّةً في السَّيْرِ. ورأَتْ إِحداها تَحْمِلُ ولدَها الصَّغيرَ، وقد احتضَنَتْهُ في ثوبِهَا الشَّفَّافِ، ورأَتْ جماعةً أُخْرَى تحمِلُ أعوادًا صغيرَةً ـ في مثلِ أحجامِ الإبَرِ ـ من شجَرِ الشُّوحِ، وبقايا وَرَقِ الأشجارِ الأخرى.

وإِنها لسائِرَةٌ في طريقِها ـ وادِعةً قريرةَ النفسِ ـ إِذْ سمِعَتْ جَلْجَلَةً تُدَوِّي في الفَضاءِ، فَقَفَزَتْ خائِفَةً مَذْعُورَةً. ولم تَدْرِ مَصْدَرَ تلك الجَلْجَلَةِ الرَّاعِدَةِ؛ لأنها لم تسمَعْ صوتَ الرَّعْدِ قبلَ اليومِ.

وذُعِرَتْ رفيقاتُها النِّمالُ التي كانت تسعَى بين الحشائشِ.. وأسرعَتْ إِلى قريَتِهَا عائِدَةً حِينَ سَمِعَتْ قَصْفَ الرُّعودِ المُدَوِّيَةِ.

أَمَّا صاحِبَتُنَا «أُمُّ مازِنٍ»، فقد سَرَتِ الرِّعْدَةُ فِي جِسْمِهَا، من فَرْطِ الخَوْفِ، وأسرعَتْ في جَرْيِها صَوْبَ البيتِ. ولكنها لم تكَدْ تُكْمِلُ عَشْرَ خُطُواتٍ، حَتَّى أَحَسَّتْ كأَنَّ هِرَاوَةً ضَخْمَةً هَوَتْ على رأسِهَا بضربةٍ قاتِلَةٍ. فصرخَتْ من فَرْطِ الألمِ والخوفِ،

وهي تَتَدَحْرَجُ على الأرْضِ:

«آه! لقد تحطَّمْتَ يا رأسِيَ المِسْكينَ!».

ولـم تكُنْ هذه الضربةُ القاتِلةُ التـي كادتْ تُذْهِلُ «أُمَّ مازِنٍ» إلَّا نقْطـةً كبيـرةً منَ المَطَـرِ، ثم تَبِعَتْهـا نُقْطةٌ أخرى فـوْقَ ظهرِهَا، ثم ثالثـةٌ، ثم توالت قطراتُ المَطرِ. فاشـتَدَّ جَـزَعُ «أُمِّ مازِنٍ» وأيقنتْ بالهلاكِ. وصاحَتْ مُغوِّثةً تطلبُ النَّجْدَةَ، وقد تَملَّكَهَا الذُّعْرُ:

«أغِيثُونِـي! أدْرِكُونِي! النَّجْدَةَ يا رفيقَاتِي؛ فإنَّ أعْدَائِي تَأْتَمِرُ بِي لتَقْتُلَنِي!».

فلـم يسـمعْ صِياحَهـا أحـدٌ، وذهـبَ صُراخُها أَدْراجَ الرِّياحِ. فأسـرَعَتْ ـ في جَرْيِهَا يَمْنَةً ويَسْرَةً ـ وهـي لا تَدْرِي إلى أين تقصِدُ، وقد غَمرَ المَطرُ كلَّ مكانٍ، والتصقتْ أَرْجُلُها بِجِسْمِها الصَّغيرِ.

ولكنهـا رأتْ ـ لِحُسْـنِ حَظِّهـا ـ حَقْـلًا على قِيدِ (مَسافَةِ) خُطُواتٍ منْهَا.

ولاحتْ أمامَها سَـنابِلُ القَمْحِ الذَّهَبِيَّةُ؛ فَخُيِّلَ إليْهَا أنَّهُ غابَةٌ. فأسرعتْ إلى الْحَقْلِ؛ لتأمَنَ غائِلةَ المَطَرِ.

obeikandl.com

٦
بَيْنَ سنابِلِ الْقَمْحِ

ومشتْ «أُمُّ مازِنٍ» بينَ سنابِلِ القمحِ تبحثُ عن مكانٍ جافٍّ، ثُمَّ وقفتْ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، وتقولُ فِي نَفْسِها:

«تُرَى هَلْ بَلَغْتُ الْمَأْمَنَ؟ تُرَى هَلْ يُفاجِئُنِي أحدٌ من أَعْدَائِي في هذا المَكانِ؟ تُرَى ماذا تَخْبَؤُهُ السَّنابِلُ العاليَةُ من مُفاجَآتٍ؟ ما أَظُنُّ أحَدًا فِيهَا، فإِنِّي لا أَسْمَعُ حركَةً لكائِنٍ كَانَ. فَلْأَبْقَ وَحيدَةً في هذا الحَقْلِ الأمينِ».

ولكنَّهَا شَعَرَتْ بالبَرْدِ يَسْرِي في جسْمِها. فاشْتدَّ نَدَمُها على خُرُوجِهَا في ذلك اليوْمِ، وضاعَفَ حُزْنَها أَنها بَعُدَتْ عن بيتِها، وتعذَّرَتْ عودَتُها إليْهِ.

وقالت تُناجِي نَفْسَها، وتَلُومُها على مُخاطَرَتِهَا:

«لا شكَّ أَنَّ أَخَواتِي سيتألَّمْنَ، وَيَقْلَقُ بالُهُنَّ لِغَيْبَتِي... ولكنْ مَاذَا أَرَى؟ إِني لأَلْمَحُ أشبَهَ شيْءٍ بالسَّطْحِ فوقَ هذه السنابِلِ ... مَرْحَى! فقد وجدْتُ بُغْيَتِي، فَلأَتَسَلَّقْ هذه الساقَ الطويلةَ لأُصْبِحَ آمِنَةً من كلِّ خطرٍ».

ولكنها لم تَكَدْ تَفْعَلُ حتى سَمِعَتْ صوْتًا راعِبًا يصيحُ قائلًا: «مَنِ القادمُ؟».

فارتعـدَتْ «أُمُّ مـازِنٍ» وأصبحَـتْ – من فَرْطِ خوفِهَـا – بِمَنْزِلَةٍ بينَ الحياةِ والموتِ، وتَدَحْرَجَتْ إلى الأرضِ مُسْرِعَةً.

ثم نظرَتْ «أُمُّ مازِنٍ» فرأَتْ دابَّةً سمْرَاءَ اللونِ ، هابِطَةً من سُوقِ القمحِ. وأنعَمتِ النظرَ فيها، فرأَتْهَا هائِلَةَ الجِرْمِ، طويلَةَ الجسـمِ، مُحَـدَّدَةَ الـرأسِ، تَمْشِـي عـلى أربـعٍ، ولها ذَنَـبٌ صغيـرٌ، وعينَانِ بَرَّاقَتانِ.

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ» بصوتٍ مُتَهَدِّجٍ، وَقَدِ استَوْلَى عليْهَا الذُّعْرُ:

«عَفـوًا يا سـيِّدَتِي، واصْفَحِي عـن زَلَّتِي، فإِنَّهَا غَيْـرُ مُتَعَمَّدَةٍ... وهـا أنتِ ذِي تَرَيْنَنِي مُبلَّلَةَ الجسـمِ؛ وقد أصبَحْتُ أجدرَ مَخْلُوقَةٍ بالعَطْـفِ والرِّثـاءِ. وقـد أَوَيْـتُ إلى هَذَا المـكانِ ـ لَحْظَةً يَسِيرةً ـ لعـلِّي آمَـنُ الأخطـارَ، وأَتَّقِـي الغَوائِـلَ. ولـم أَكـدْ أَسْـتَقِرُّ تَحْتَ السنابِلِ...».

فقاطَعَتْها الدابةُ السمراءُ قائِلةً:

«لعلك تَعْنِينَ بَيْتَنا!»

فقالت «أُمُّ مازِنٍ»:

«عُذْرًا ـ يا سيدَتِي ـ وصَفْحًا. فإن المَطَرَ قد كَفَّ عن الهُطُولِ في مَا أظنُّ، وفي قُدْرَتِي أنْ أعودَ أدْرَاجِي إذا أَذِنْتِ لي؛ حتَّى لا أُزْعِجَكِ».

فقالتْ لها الدابةُ السمراءُ:

«تَرَيَّثِي قليلًا، فلن آذَنَ لكِ قبل أن أسألَ أُمِّي في أمرِكِ!».

فقالت «أُمُّ مازِنٍ»:

«كلَّا، كلَّا ـ يا سـيِّدَتِي ـ لا تُنادِيهَا، ودَعِينِي أَمْضِ في سَـبِيلِي؛ فإِنِّـي جِـدُّ خائِفَةٍ، وحُـقَّ لِيَ أن أخـافَ، فإن هذه هـي أولُ مرَّةٍ أَخرُجُ فيها من قَرْيَتِي... ولستُ أعرِفُ أحدًا...».

obeikandi.com

فقالَتِ الدابَّةُ السمراءُ:

«إِنِّي أَجْهَلُكِ، ولا أعْرِفُ أَيَّ مَخْلوقٍ أنتِ. فمن تكونِينَ؟».

فقالتْ لها «أُمُّ مازِنٍ»:

«أنا نملةٌ صغيرةٌ سوداءُ...».

فصاحت الدابَّةُ:

«أَنَمْلَةٌ أَنْتِ؟! كلَّا، وكَذَبْتِ في زَعْمِكِ، فإن أُمِّي قد أَرتْني نَمْلَةً ـ ذاتَ يـوْمٍ ـ لهـا أربعةُ أجْنِحَةٍ بيضٌ. ولسـتُ أرى لكِ أجْنِحَةً... وهذا دليلٌ على أنك لستِ نملةً كما تَزْعُمِينَ!».

فقالتْ لها «أُمُّ مازِنٍ»:

«كلَّا يا سيِّدَتي، فإنِّي لَمْ أَكْذِبْك شَيْئًا مِمَّا قلْتُ... وإِنَّما أنا نَمْلَةٌ عامِلةٌ... وليس لبناتِ جِنْسِي أجْنِحَةٌ، ما عدا الآباءَ والأُمَّاتِ، أمَّا العامِلاتُ ـ من مثيلاتِي ـ فلا أجْنِحَةَ لَهُنَّ».

فقالتِ الدابَّةُ السَّمْراءُ:

«أَعامِلَةٌ أنتِ إِذَنْ؟ شَـدَّ ما تُضْحِكينَنِي بهذِه المُداعَبَةِ الظَّرِيفَةِ! إِنِّي لأَحـارُ إِذا حاوَلْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ: أيَّ فائِدَةٍ تعودُ على أحدٍ من حشَـرَةٍ صغيرَةٍ في مِثْلِ ضآلَتِكِ؟ وماذا يَسْـتَطِيعُ مِثْلُكِ أن يَعْمَلَ وهو بهذه الْحَقارَةِ؟».

obeikandl.com

فأجابتْهَا «أُمُّ مازِنٍ»:

«إِنَّني لَمَّا أَبْدَأْ عَمَلِي كلَّهُ؛ فلَمْ أَزَلْ حَديثةَ عَهْدٍ بالدُّنْيا، ولقدْ دَهَمَتْنِي العاصِفَةُ، ولَمْ أَكَدْ أَنْتَهِي من حَلْبِ بقَراتِنَا».

فعجبتِ الدابَّةُ السَّمْرَاءُ، وقالتْ لَهَا جِدَّ مَدْهُوشَةٍ:

«أَيَّ بَقَراتٍ تَعْنِينَ أَيَّتُهَا الْبَلْهَاءُ؟ أَهِيَ بقَراتٌ حقيقِيَّةٌ، ذاتُ قُرُونٍ، كالَّتِي نَرَاهَا في الحُقُولِ؟ شَدَّ مَا طَوَّحَ بكِ الْخَيَالُ، فأَصْبَحْتِ تَسْبَحِينَ في عالَمِ الأحلام، أيتُها الصَّغيرَةُ الحَمْقَاءُ! كيفَ تُحاوِلِينَ أَنْ تُقنِعيني أنَّ نَمْلَةً ضَئِيلَةً مثلَكِ تستطيعُ أن تَحْلُبَ بقرةً كبيرَةَ الْحَجْمِ هائِلَةَ الْجِرْمِ؟ هاهاها!».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«إِنَّ بقراتِنا ـ يا سيِّدَتِي ـ صغيرةٌ جدًّا.

إِنَّها ـ لَو عَلِمْتِ ـ بَرَاغِيثُ ضَئِيلَةُ الْحَجْمِ، تَعِيشُ فَوْقَ الأشْجارِ.

وَقَدْ كُنْتُ ـ اليومَ ـ أُداعِبُهَا بقَرْنَيَّ مُتَلَطِّفَةً؛ فيَدُرُّ جِسْمُهَا عليَّ قطراتٍ لذيذةَ الطَّعْمِ في حلاوَةِ السُّكَّرِ.

ولَقَدْ شَعَرْتُ الآنَ بألَمِ الجُوعِ. فهل تَأْذَنِينَ لِيَ ـ مُتَفَضِّلَةً ـ أنْ أَعُودَ إِلى بَقَراتِي، فأحلُبَهَا، وأَسْتَدِرَّ منها طَعامِيَ الشَّهِيَّ، ثم نَلْتَقِيَ بعدُ؟».

فاقتربَـتِ الدابَّةُ السَّـمْرَاءُ مِنْ «أُمِّ مازِنٍ»، ونظـرتْ إليْهَا بعَيْنَيْهَا الكَبيرتَيْنِ، ثم قالَتْ لَهَا:

«كلَّا.. كلَّا.. لَنْ آذَنَ لَكِ في الذَّهَابِ، ولن أسْمَحَ لكِ بالانْصِرَافِ قبلَ أَنْ تُخْبِرِيني باسْمِكِ».

فارْتَاعتْ «أُمُّ مازِنٍ» المِسْكينَةُ، وتراجَعَتْ إلى الوَراءِ مَذْعُورَةً.

فقالتْ لها الدابَّةُ السمراءُ:

«هَلُمِّي، فَخَبِّريني باسْمِكِ... أجِيبِي!».

فأجابتْها بصوتٍ خافِتٍ مَحْزُونٍ:

«اسْمِي: أُمُّ مازِنٍ».

فقالتْ لها الدابَّةُ السَّمراءُ:

«أمَّا أنا، فَيَدْعُونَنِي بأُمِّ راشِدٍ».

فقالت «أُمُّ مازِنٍ»:

«ما أبْدَعَها كُنْيَةً يا عزِيزَتِي: أُمَّ راشِدٍ!».

فَاهْتَزَّتْ «أُمُّ راشِدٍ» قائِلةً:

«إنِّي فَأْرَةٌ صغيرَةٌ، أسكنُ مع أهْلِي هذا العُشَّ الَّذِي تَرَيْنَه فوقَ رَأْسَيْنا».

فنظرَتْ «أُمُّ مازِنٍ»، فرأتْ ـ في أَعْلى سنابِلِ القمحِ ـ كُرَةً كبيرَةً مُعَلَّقةً بيْنَهَا. فصاحت مَدْهُوشَةً:

«كيف تَقُولِينَ ذلِك؟ أهَذَا هو عُشُّكِ يا «أُمَّ راشِدٍ»؟ إنه لا يُمَاثِلُ بُيوتَ النَّمْلِ!».

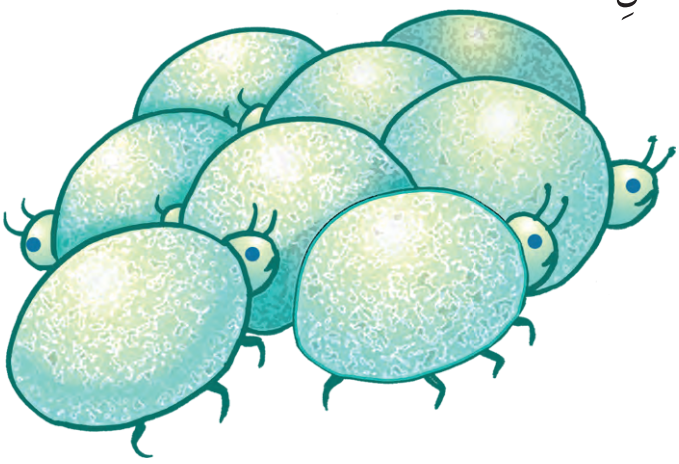

obeikandi.com

٧
«أُمُّ أَدْراصٍ»

وصاحَتْ «أُمُّ راشِدٍ» تُنَادِي أُمَّهَا بأعْلَى صوتِهَا. فخرجَتْ من العُشِّ فأرَةٌ أكبرُ منْهَا، ثم قالتْ لَهَا وهي تُدانِيهَا:

«آه! هـا أنـت ذي يا بُنَيَّتِي العزيزةَ. وقد كنـتُ في قَلقٍ عليكِ ـ يا «أُمَّ راشِدٍ» ـ فما تصْنَعِينَ هُنَا وَحْدَكِ؟».

فأجابَتْهَا «أُمُّ راشِدٍ»:

«لستُ هنا وَحْدِي يا أُمِّي. فانْظُرِي إلى هذه الزائرةِ الصغيرةِ».

فقالت «أُمُّ أدْراصٍ»:

«آه! صدقـتِ يا «أُمَّ راشِـدٍ»، فإنهـا نَمْلةٌ. وما أظنُّها إلا شـارِدَةً ضَلَّتِ الطريقَ إلى بَيْتِها. أليْسَ كذلكِ أيتُها النملَةُ الصغيرةُ؟».

فلم تستطعْ «أُمُّ مازِنٍ» أن تُجِيبَها بِكلمةٍ واحدَةٍ.

فانْبَرَتْ «أُمُّ راشِدٍ» قائِلَةً:

«إنها تُدْعَى «أُمَّ مازِنٍ»، وقد دَهِمَتْها العاصِفَةُ في مَا تقولُ».

فقالتْ «أُمُّ أدْراصٍ»:

obeikandl.com

«خَبِّرِيني يا صَغيرَتِي العزيزةَ: أَلَسْتِ تَقْطُنينَ تلك القرْيةَ العامِرَةَ الَّتِي في أسْفَلِ شَجَرَةِ البُرْقُوقِ الكبيرَةِ؟».

فأَجابَتْهَا «أُمُّ مازِنٍ» :

«صَدقتِ ـ يا سَيِّدَتِي ـ فإنَّ بَيْتَنا هُناكَ، بالْقرْبِ مِنْ جِذْعِ تلكِ الشجرةِ».

فقالتْ «أُمُّ راشِدٍ»:

«لَعَلَّ أُمَّكِ شَديدَةُ القَلَقِ عَلَيْكِ بَعْدَ أَنْ طالَتْ غَيْبَتُكِ».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«تقولينَ: أُمِّي! لستُ أعْرِفُ أنَّ لِي أُمًّا وَلَدَتْنِي!».

فسأَلَتْها «أُمُّ راشِدٍ»:

«أَتَعْنِينَ أَنَّهَا قَدْ مَاتَتْ؟».

فأَجابَتْهَا «أُمُّ مازِنٍ»:

«ذلكِ ما أَجْهَلُهُ الْجَهْلَ كُلَّهُ، فإنَّنِي لَمْ أرَهَا قَطُّ!».

فسأَلَتْها «أُمُّ راشِدٍ»:

«إذَنْ فمنْ كان يَتَعَهَّدُكِ بالْغِذاءِ في أثْناءِ طُفُولَتِكِ؟».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«كانتْ مُرْضِعاتُنَا العامِلاتُ يَتَعَهَّدْنَنا، ويَسْهَرْنَ على راحَتِنا.

obeikandi.com

وإنِّي أُؤَكِّدُ لكِ أَنَّهُنَّ لَمْ يُقَصِّرْنَ في تَلْبِيَةِ رَغَباتِنَا والعِنايةِ بأَمْرِنا».

فقالتْ «أُمُّ راشِدٍ»:

«أليْسَ لـكِ مثلُ ما لنَا ـ مَعْشَـرَ الفَأْرِ ـ أُمٌّ حَنُـونٌ تَتَعَهَّدُكِ بِبِرِّهَا وعَطْفِهَا؟ يا لَكِ منْ شَقِيَّةٍ تاعِسَةٍ!».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«إِنَّ لَنَا ـ مَعْشَـرَ النَّملِ ـ أُمَّاتٍ. ولكنَّهُنَّ يُحْبَسْنَ في غُرْفَةٍ بِعَيْنِها ـ منْ غُرَفِ القَرْيةِ ـ ويَقْضِينَ فيها أعمارَهُنَّ، كلَّها، ليَبِضْنَ. وقدْ حَدَّثُونِي أَنَّنِي حِينَ كنْتُ إِحْدَى ذلكِ الْبَيْضِ الصَّغيرِ...».

فقاطَعتْها «أُمُّ راشِدٍ» قائِلَةً:

« لقد كنْتُ أحْسَبُ أنَّ الطُّيورَ هِيَ ـ وَحْدَها ـ التي تبيضُ!».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«نعم، وكنتُ ـ مُنْذُ زمَنٍ يَسِيرٍ ـ شَيْئًا مُسْتَدِيرًا، غايَةً في الصِّغَرِ، ولـم يَكُـنْ لي رأْسٌ، ولا أرْجُـلٌ، ولا أَعْيُنٌ... ولَسْـتُ أذكرُ ذلك الزَّمَنَ جَيِّدًا».

فقالَتْ «أُمُّ راشِدٍ» ضاحِكَةً:

«لقـدْ فَهِمْتُ ما تَعْنينَ، فقد كنْتِ في ذلـكِ الوقتِ جَنينًا؛ لَم تَتِمَّ خِلْقَتُهُ، ولم يتكوَّنْ رأْسُهُ بَعْدُ».

واستأنَفَتْ «أُمُّ مازِنٍ» قائِلَةً:

«وفي ذاتِ يومٍ انْشَـقَّ ذلكِ البَيْضُ ـ في مَا حدَّثَتْنِي مُرْضِعَتِي «أُمُّ مَشْـغُولٍ» ـ وخَرَجَتْ منْ واحِدةٍ مِنْـهُ دُودَةٌ بيضاءُ. وكانت هذهِ الدُّودَةُ هِيَ أَنَا!

وقد كُنْتُ ـ حينَئِذٍ ـ جِدَّ سعيدةٍ. وكانتِ المُرْضِعَاتُ يُغَذِّينَنِي ـ في ذلك العهْدِ ـ كلَّ صَباحٍ، ثم يَحْمِلْنَنِي إلى ضَوْءِ الشمسِ، وَيدْلُكْنَ جِسْمِي، ويَلْعَقْنَهُ، حتى إذا أمْسَيْتُ حَمَلْنَنِي إلى البَيْتِ... وقدِ انْقَضَى هذا الزَّمَنُ السَّعِيدُ إلى غَيْرِ عَوْدَةٍ؛ فما كَانَ أَطْيَبَهُ، وأرْوَحَ ذِكْراهُ!

ثم أُصِبْتُ بمَرَضٍ خَيَّلَ إلَيَّ أنَّ آخِرَتِي قد قَرُبتْ، وأصبحتُ لا أَسْتَسِيغُ الطَّعامَ، ولا أَسْتَمْرِئُ الغِذاءَ، ويَئِسْتُ من البَقاءِ في هذِهِ الدُّنْيَا، ووَطَّنْتُ نَفْسِي عَلى لِقَاءِ المَوْتِ! وثَمَّةَ سمعتُ صَوْتًا يَصيحُ:

«تغَطَّيْ أَيَّتُهَا الدُّودَةُ الصَّغِيرَةُ، والتَفِّي بهذا الْخَيطِ الدقيقِ الذي تُخْرِجينَهُ من فَمِكِ».

obeikandl.com

فلبَّيْتُ ذلكِ الدُّعاءَ من فوْري... ولم أكدْ أفعلُ، حتى وَجَدْتُني مَحْبوسَةً في كِيسٍ!».

فقالتْ «أُمُّ راشِدٍ» مُتَبرِّمَةً:

«مَحْبوسةً داخلَ كيسٍ؟! لو صَحَّ ذلكِ لاختنَقْتِ أيَّتُهَا المِسْكِينَةُ التاعِسَةُ!».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«كلَّا، لـم أختنِـقْ، بـلْ نِمْتُ نَوْمًـا عميقًا، وانتقلـتُ ـ منذُ ذلكِ الْحِيـنِ ـ من طَوْرِ الدُّودِيَّـةِ إلى طَوْرِ النَّمْلِيَّـةِ. فأَصبحتُ ـ حينئذٍ ـ عروسًا من عرائسِ النَّملِ، ملفوفةً في أفوافِ الحَريرِ.

ولمَّا استيْقَظْتُ من سُبَاتِي (نوْمِي العميقِ) ألْفيْتُنِي قد انتقلْتُ إلى حالٍ مُغايِرَةٍ لِحَالي الأُولَى كلَّ الْمُغايَرَةِ. فأَصبَحْتُ مَخْلوقَةً أُخْرَى، وصارَ لِيَ ستُّ أرجُلٍ، وانْقَسَمَ جِسْمِي أقسَامًا ثلاثةً؛ فاسْتَوْلى عَلَيَّ الفَرَحُ، وصِحْتُ مُبْتَهِجَةً:

«مَرْحَى! مَرْحى! لَقَدْ أصبَحْتُ الآن في عِدادِ الحَشَرَاتِ!».

عَـلَى أَنَّ فَرَحِي لَمْ يَـدُمْ طويلًا، فقد كانَ قَصِيـرَ المَدَى، وقد علمـتُ أَنَّنِي كُنْـتُ ـ إلى ذلك الْحِينِ ـ سـجينةً في الكِيسِ الذي حدَّثْتُكِ عنهُ.

وَلَـمْ أَكُنْ ـ حينئِذٍ ـ أستطيعُ حَراكًا. وثَمَّةَ أيقنتُ بالهَلاكِ مَرَّةً أُخْرَى، وحزِنْتُ لذلكِ، فاسْتسْلمْتُ للبُكاءِ».

فصاحَتِ الفَأْرَتَانِ:

«لكِ اللهُ أيتها الصديقةُ التاعِسَةُ!».

واستأنفَتْ «أُمُّ مازِنٍ» قائِلةً:

«ثم لبِثتُ أبْكِي وقتًا طويلًا. وإنِّي لَغارِقَةٌ في أحزَانِي، مُسْتَسْلِمَةً لآلَامِي، إذْ طَرَقَ سَمْعِي دَبِيبُ خُطُواتٍ، فَصِحْتُ مُغَوِّثةً أطلبُ النَّجْدةَ، ثم شعَرْتُ بأنَّ رفيقَاتِي الكبِيرَاتِ يَثْقُبْنَ تلكِ القِشْرةَ التي تُحِيطُ بِجِسْمِي. وما كِدْنَ يَنْتَهِينَ مِنْ ذَلكِ، حتَّى اقتربتْ مِنِّي إحْدَى العامِلَاتِ، فأمسكتْ بِرَقَبَتِي، وجَرَّتْنِي إليْهَا بكلِّ ما أُوتِيَتْ من قُوَّةٍ. فَصَرخْتُ مُتَأَلِّمَةً:

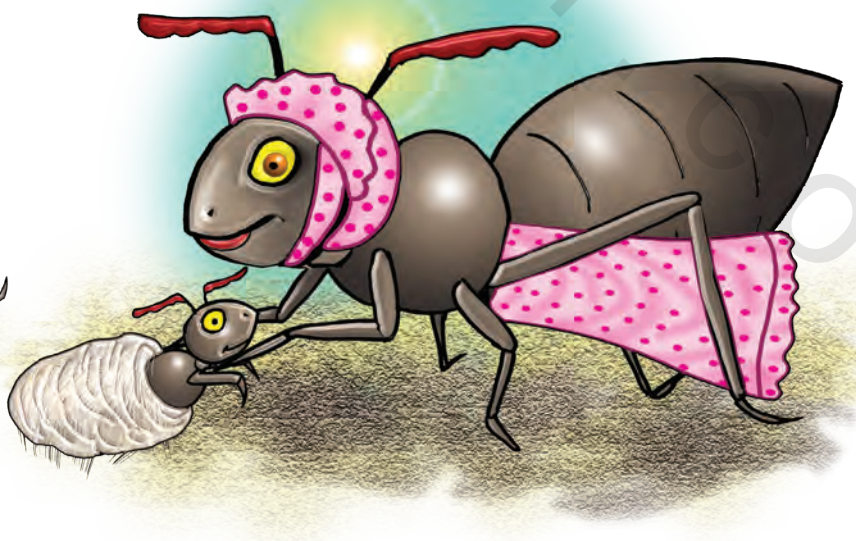

obeikandl.com

«آه! ترَفَّقي بي ـ يا سيِّدَتِي ـ فقد آلَمْتِني أشدَّ الألمِ!».

وكانتْ تلكِ المُرْضِعَةُ ـ في مَا يُخَيَّلُ إليَّ ـ صَمَّاءَ، لا تسمَعُ. فقدْ ظلَّتْ تَجُرُّنِي، ولم تأبَهْ لِصَيْحَاتِي، وَلَمْ تُصْغِ لِتَأَوُّهَاتِي، واقتَرَبَتْ جَمْهَرَةٌ مِنَ العامِلاتِ ليُساعِدْنَهَا في ذَلِكِ. وما كِدْنَ يفْعَلْنَ، حتَّى سمِعْتُ صَوْتَ القِشْرَةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ جِسْمِي وهِيَ تتكَسَّرُ.

وَهَكَذَا خرجْتُ من سِجْنِي الضَّيِّقِ، وأنا أضعفُ مَا أَكُونُ.

وقد أُغْمِيَ عَلَيَّ من فَرْطِ الألمِ والضَّنَى.

ثم أحاطَتْ بِيَ الْمُرْضِعاتُ الحانِيَاتُ، والعاملاتُ الرَّفيقاتُ، وظَلِلْنَ يَدْلُكْنَ جِسْمِي، حتى أَيْقَظْنَنِي من غَشْيَتِي، وأَعَدْنَ إليَّ رُشْدِي بعد زمنٍ قليلٍ.. ثُمَّ مَرَّتْ بِيَ أيامٌ قليلةٌ، فشعَرْتُ بالقُوَّةِ تَسْرِي في جَسَدِي شيئًا فشيئًا، حتى أصبحتُ كما تَرَيانِ أَيَّتُهَا الصَّديقَتَانِ!».

٨
فِي طَرِيقِ النَّملِ

فقالَتْ «أُمُّ أَدْراصٍ»:

«ما أجْمَلَ قِصَّتَكِ يا «أُمَّ مازِنٍ»، فوداعًا أَيَّتُهَا الصَّديقَةُ الصَّغيرَةُ؛ فـإنَّ زَوْجِـي «أبا أَدْرَاصٍ» لا يَـزَالُ ـ كما تَرَكْتُهُ ـ وَحِيدًا في عُشِّـهِ. فَلْأَذْهَبْ إليْهِ مَعَ ابنَتِي «أُمِّ راشِدٍ»!».

فودَّعَتْهـا «أُمُّ مـازِنٍ»، وأسـرَعَتِ الفأرتَـانِ إلى عُشِّـهِمَا، وحَيَّتَا صدِيقَتَهُمَا، وهما تتسلَّقَانِ سنابِلَ القمْحِ في خِفَّةٍ ورشاقَةٍ.

واسْتَخْفَتْ «أُمُّ مازِنٍ» بيْنَ سنابِلِ القمْحِ. وظلَّتْ تُوَاصِلُ سَيْرَهَا حتَّى وصلَتْ إلى سـهْلٍ فسيحٍ. فلم تهتَدِ إلى سـبيلِهَا الَّتِي تسلُكُهَا إلى بيتِهـا، وأيقَنَتْ أنها قد ضَلَّـتِ الطريقَ. وحارتْ في أَمرِها، فلم تَدْرِ: كيْفَ تصنَعُ؟

وإنها لتسـيرُ مُعْتَسِـفَةً (على غيـر هُدًى)، إِذْ أبصَرَتْ لِحُسْـنِ حظِّهـا طَرِيـقَ النمـلِ. ولاحَ لها سَـطْحُ بيتِهَا العَـالي، فصاحَتْ مُبْتَهِجَةً مَسْرورَةً:

obeikandi.com

«يا لَها من سعادَةٍ! لقدِ اهْتَدَيْتُ إلى وادِينَا العامِرِ».

ولكنَّهَا شَعَرَتْ بألَمِ الجُوعِ، فآثَرَتْ أن تذهبَ إلى بقراتِهَا لتحْلُبَهَا. وثَمَّةَ أَسرعتْ إلى شجرةِ البُرْقُوقِ، حيْثُ رأَتْ جَمْهَرَةً من رَفيقاتِهَا دائِبَةَ الحرَكَةِ، مَوْفورَةَ النَّشاطِ بين رائِحَةٍ وغادِيةٍ.

وما إنْ أَبْصرَتْ إحدَى شقِيقَاتِهَا وَهِيَ تُدَانِيهَا، حَتَّى ضَرَبَتْ رأْسَهَا بقَرْنَيْهَا ـ وَهَذِهِ لُغَةُ الكلامِ عِنْدَ النَّمْلِ ـ ثُمَّ تبادَلَتَا تَحِيَّةً مُقْتَضَبَةً؛ لأن النملَ دائبُ العَملِ، وهو مشغولٌ أبدًا، لا يَرضَى أن يُضيِّعَ وقتًا في ثَرْثَرَةٍ لا طائِلَ تَحْتَهَا.

فقالَتْ لَهَا أُخْتُهَا:

«ها أنتِ ذي قادِمةٌ يا «أُمَّ مازِنٍ». فمن أين أتيتِ؟».

فقالَتْ لَهَا «أُمُّ مازِنٍ»، وهي مُسْتَأْنِفَةٌ سَيْرَهَا:

«لقد جُلْتُ جَوْلَةً قصيرَةً، فدهَمَتْنِي العاصِفَةُ».

ثم قابَلتْهَا نملَةٌ أُخْرَى؛ فقالَتْ لَهَا:

«سُعِدَ يَوْمُكِ يَا «أُمَّ مازِنٍ». أذاهِبَةٌ أَنت لِتَحْلُبِي بقراتِنا؟ سِيري مُتَيَقِّظَةً حَذِرَةً؛ فإن عصفورًا يَرْقُبُكِ من أعْلَى شَجَرةِ البُرْقوقِ. فحذارِ أن تَذْهَبِي فريسةً لَهُ!».

فقالت «أُمُّ مازِنٍ»:

«شُكْرًا لَكِ ـ يا «أُمَّ نَوْبَةَ» ـ على نَصِيحَتِكِ. وَداعًا يا عزِيزَتِي!».

ثـم أبْصَـرَتْ مُرْضِعَتَها «بنتَ الشَّـيْصَبان»، فقالت لهـا مُبْتَهِجَةً بلُقْياها:

«حُيِّيـتِ يا «بنتَ الشَّـيْصَبَانِ»، وسُـعِدَ يومُـكِ! أقادِمَةٌ أنتِ من هذا الثَّقْبِ؟».

فأجابَتْهَا «بنتُ الشَّيْصَبَانِ»:

«صَدَقْتِ يا أُمَّ مازِنٍ. آه لو علمتِ ـ يا بُنَيَّتِي ـ ما أصابَنِي اليَوْمَ من ألمٍ وشـقاءٍ! لقد فُقِئَتْ إِحْدى عُيونِـي منذ لحظةٍ! وقـد أصبحتُ ـ لِتَعاسَتِي ـ لا أكاد أُبْصِرُ شيْئًا».

فقالت «أُمُّ مازِنٍ» :

«مِسْـكينَةٌ أنـت يـا «بنـتَ الشَّـيْصبانِ»، فالْبَثِـي قليـلًا، فإنِّـي سأَصْحَبُك في عَوْدَتِكِ إلى القرْيَةِ».

obeikandl.com

٩
في بُرْقُوقَةٍ

ثم أسْرَعَتْ «أُمُّ مازِنٍ» إلى غُصْنِ الشَّجَرةِ، وزَجَّتْ نَفْسَهَا بيْنَ أوْراقِهَا باحِثَةً عن بقراتِها، فلم تَجِدْ - في هذه المرَّةِ - بُرْغُوثًا تَحْتَلِبُهُ. ولكِنَّها عثرَتْ عَلَى بُرْقوقَةٍ كبيرَةٍ، ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ، وكان بعضُ العصافِيرِ قَدْ شَقَّهَا. فقالت «أُمُّ مازِنٍ» تُحَدِّثُ نَفْسَها:

« ما أَحْوَجَنِي إلى هذا الطَّعَامِ. فَلْأتذوَّقْه لأسُدَّ جُوعِي!».

ولم تَكَدْ تَلْعَقُ عَصِيرَهَا حتى قالتْ مُبْتَهِجَةً بهذا الغِذاءِ الفاخِرِ الشَّهِيِّ:

«ما ألَذَّه طعامًا، وأشْهَاهُ غِذاءً! لقدِ اهتديْتُ إلى طعامٍ آخرَ غيرِ لَبَنِ البَراغيثِ الصغيرَةِ».

ثم لبثَتْ «أُمُّ مازِنٍ» على البُرْقُوقَةِ الشَّهِيَّةِ زَمَنًا طويلًا، وأنْسَتْها حَلاوَتُها كُلَّ شَيْءٍ، وظَلَّتْ تَأْكُلُ منها في شَرَهٍ عجيبٍ. وإنَّها لمُقْبِلَةٌ على امْتِصاصِها، إذْ بالبُرْقوقَةِ تَرْقُصُ في الفَضاءِ، ثم تَتَرَجَّحُ يَمْنَةً ويَسْرَةً!

وأحَسَّتْ «أُمُّ مازِنٍ» ذلِكَ الخَطَرَ الدَّاهِمَ، فَتَشبَّثَتْ بِهَا مُسْتمِيتَةً، وأَمْسَكَتْهَا بكلِّ ما أُوتِيَتْ من قُوَّةٍ، وهي لا تدري ماذا حدثَ!!

ثم اهتـزَّتِ البُرْقُوقَةُ هِـزَّةً أخرى، فهـوَتْ إلى الأرضِ، وأُغْمِيَ على «أُمِّ مازِنٍ» وهيَ جاثِمَةٌ في وَسَطِ الثَّمَرَةِ.

١٠
فِي بَيْتِ «فاضِلٍ»

ولعلَّكُمْ تُحِبُّونَ أن تَعْرِفُوا ـ أَيُّهَا الأطفَالُ الأعِزَّاءُ ـ السِّرَّ في مَا حدَثَ، وإِنِّي قاصٌّ عليْكُمْ حقِيقَةَ الأمْرِ:

لقد جاءَ «فاضِلٌ» الصغيرُ ـ وهو غُلامٌ في العاشِرَةِ من عمرِهِ تقْرِيبًا ـ وظلَّ يَهُزُّ شجرةَ البُرْقوقِ؛ ليَمْلأَ سَلَّتَهُ بذلك الثَّمَرِ الشَّهِيِّ؛ لِيُعِدَّ منها فطائِرَ لذيذةً. وكانت بُرْقوقةُ «أُمِّ مازِنٍ» أولَ ما سَقَطَ منَ الشجرةِ!

ومازال «فاضِلٌ» يَهُزُّ شجرةَ البُرْقوقِ، ويَضَعُ في سَلَّتِه ما يسقُطُ منها حتى امْتلأَتْ، فعادَ بِهَا إِلَى بيْتِهِ.

أَراكُمْ تتساءلون عن مصيرِ «أُمِّ مازِنٍ» لتتعَرَّفُوا ماذا أصابَهَا؟ أَكان نصيبَها الهلاكُ أَمِ النَّجاةُ؟

فاعْلَمُوا ـ أيها الأصدقاءُ الأعِزَّاءُ ـ عَلِمْتُمُ الْخيرَ، وأُلْهِمْتُمُ الرُّشْدَ وَالسَّدادَ ـ أنَّ «أُمَّ مازِنٍ» لم تَمُتْ، وإِنَّما أُغْمِيَ عليها من فَرْطِ الألمِ، ولَبِثَتْ وَقتًا طويلًا لا تُبْدِي حَراكًا. ولمَّا استيقَظَتْ وَجَدَتْ نفسَها... يا لَلعجبِ! أَتعرِفُونَ أين وجدَتْ نفسَهَا؟

لقد دَهِشَت «أمُّ مازِنٍ» ـ كما تَدْهَشُونَ ـ حين رأَتْ أنَّها في وسَطِ فَطيرةٍ كبيرَةٍ مصنوعةٍ من البُرقوقِ.

وقفزَ «فاضلٌ» الصغيرُ فَرِحًا مسرورًا بتلك الفَطيرةِ البُرقوقيَّةِ الجَميلَةِ. وقال لأُمِّه:

«ما أجملَ فطيرَتَكِ يا أُمِّيَ العزيزةَ! سأُعْطِي «لَيْلى» الصغيرةَ نصفَ نَصِيبِي منْهَا؛ لأنَّهَا مريضةٌ، وأَنا أُحِبُّ أَن أُدخِلَ السُّرورَ على قلبِهَا. فَهَلْ تُقِرِّينَنِي على ذَلِكِ؟

إِن الفُرْنَ مُوقَدَةٌ، فلْنَضَعْ فِيهَا الفَطِيرةَ؛ لِتُنْضِجَها النارُ الحاميةُ بعد قليلٍ».

فارتَجَفَتْ «أمُّ مازِنٍ»، وقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا:

«آه! لقد حان حَيْني بِلا رَيْبٍ. ولو تَهاوَنْتُ قليلًا لقتَلَتْنِي نارُ الفُرْنِ الحاميةُ. فلأَنْجُوَنَّ بنفسي قبل أَن أَسْتهْدِفَ لهذا الْخطَرِ الداهِمِ المُمِيتِ!».

والْتَفَتَ «فاضلٌ» إِلى أُمِّه بَغْتَةً، وقال لها:

«يا للعجَبِ! أَلا تُبْصِرينَ هذه النملةَ يا أمَّاه؟ إنها تتنَزَّه على فَطيرَتِنَا. فيا لَها من نملةٍ جميلةِ الشكلِ، ظريفةِ الْمَنْظَرِ... لا بُدَّ من إِخراجِهَا!».

obeikandl.com

فصاحَتْ بِهِ «أُمُّ مازنٍ»، وقد خَشِيَتْ عاقِبَةَ هذا الْعمَلِ:

«حَـذارِ أن تَفْعلَ ذلك يا «فاضلُ». اتْرُكْنِـي ـ بربِّك ـ أَذْهَبْ إلى حيثُ أَشاءُ».

ولكـنَّ «فاضـلا» لم يفهَمْ شـيئًا مما تقـولُ؛ لأَنَّهُ لا يعـرفُ لغةَ النملِ.

وثَمَّـةَ أَمْسَـكَ «أُمَّ مـازِنٍ»، وقَبَضَ عليْهَـا بإِصْبعَيْـه فتوجَّعَتْ، وأَنَّتْ من فَرْطِ الألمِ، وقالت له ضارِعَةً مُتَوَسِّلةً:

«شَـدَّ مـا آلَمَتْنِـي قبضَـةُ أصابِعِكَ أيُّها القاسِـي! فدَعْنـي، وإِلَّا اضْطُرِرْتُ إلى قَرْصِكَ».

ولـم يفهمْ «فاضلٌ» شـيئًا من وَعيدِها، ولكنَّـه وَضعَهَا في راحَةِ يـدِهِ مُتَرَفِّقًا. ثـم نادَتْه أُمُّه، فَوَضَعَ «أُمَّ مازِنٍ» عـلى المائِدَةِ، وَخَفَّ إلى أُمِّهِ مُسْرِعًا.

obeikandl.com

١١
فصلٌ من كتابٍ

«ورأَتْ «أُمُّ مازِنٍ» أَمامَهَا فُرْصَةً سانِحَةً لِلْهَرَبِ، فنزَلَتْ مُسرعَةً مـن المائدةِ، واختبـأَتْ في صُندوقِ القُمامَةِ (الكُناسَـةِ) بين فُتاتِ الْخُبـزِ وأخلاطِ الطعـامِ. وأصبحتْ ـ حينئذٍ ـ آمِنَـةً منَ الأَخْطَارِ. وامتلأَتْ نفْسُـهَا غِبْطَةً وسُرورًا حين رأتْ «فاضلا» يَعُودُ للبحْثِ عنْهَا وفي يدِهِ مِصْبَاحٌ. وأَبْصَرتْه وهو يُفَتِّشُ عنها في أَرْجاءِ المَطْبخِ كلِّه على غير طائلٍ».

وَجَاءَ «أبو فاضلٍ» فسأل ولدَه:

«ماذا تصنعُ؟».

فحدَّثَهُ بقصَّةِ النَّمْلةِ والبُرْقوقَةِ. فانتهزَ «أبو فاضلٍ» تلك الفُرْصَةَ السـانِحَةَ، وظـلَّ يُحَدِّثُ وَلَدَه عـن خصائصِ النمـلِ، ومـزايَـاهُ، ونشـاطِهِ النـادرِ، وَحِيَلِهِ العجيبَةِ. فدَهِشَ «فاضـلٌ»، وأُعْجِبَ بِما سَمِعَ، وَقَالَ لأبيهِ:

«لعلَّ هذا أعْجَبُ درسٍ سَمِعْتُهُ في حيَاتِي!».

ورأى الوالِدُ أنَّ ابْنَهُ لا يزالُ في حاجَةٍ إلى سَمَاعِ الْمَزِيدِ، فَقَالَ لَهُ:

obeikandl.com

«مـا دُمتَ تطلـبُ الْمَزِيـدَ، فاذهبْ إِلَى هـذا القِمَطْـرِ، وأَحْضِرِ السِّـفْرَ العاشِـرَ من كتابِ« نِهايَةِ الأَرَبِ»؛ لأَقْرَأَ عَلَيْكَ نُبْذَةً شائِقَةً مِمَّا كَتَبَهُ مُؤَلِّفُهُ عَنِ النَّملِ».

فأسـرعَ «فاضِلٌ» إلى الْقِمَطْرِ، وأَحضرَ السِّفْرَ العاشِرَ من «نِهايَةِ الأَرَبِ»، فقـرأ عليه أَبـوهُ القِطْعَةَ الَّتِي اختارَهَا لَهُ من ذلك السِّـفْرِ النفيسِ. وإِلَيْكَ ما اختارَهُ:

«... والنَّمْـلُ من الْحَيَـوانِ الْمُحْتالِ في طَلَـبِ المَعَاشِ. يتفرَّقُ لذلِـكَ، فإِذا وَجَدَ شـيئًا أَنْـذَرَ الْبَاقِيـنَ، فيَأْتِينَ إِلَيْهِ، ويأْخُـذْنَ مِنْهُ. وكُلُّ واحِـدٍ مُجْتهِدٌ في إِصْلَاحِ شَـأنِ العامَّةِ، غيرُ مُخْتَلِسٍ لشـيْءٍ من الرِّزْقِ دُون صَحْبِهِ.

وَمِـنْ تَحَيُّلِه في طَلَبِ الرِّزْقِ: أَنَّهُ رُبَّما وُضِعَ بَيْنَهُ وبينَ ما يُخافُ عليْـهِ مِنْـهُ ما يَمْنَعُه من الوُصولِ إِلَيْهِ من ماءٍ أو شَـعَرٍ، فيتسـلَّقُ في الحائـطِ، ويَمْشِـي على جِـذْعٍ من السـقْفِ، حتى يُسـامِتَ (يُقابِلَ ويُـوازِيَ) ما حُفِـظَ منه، ثم يُلْقِي نفسَـهُ عليْهِ. وفي طَبْعِـهِ وعَادَتِه أن يَحْتكِرَ (يَجْمَعَ ويَحْتَبِسَ) ـ في زمَنِ الصيْفِ ـ لزمَنِ الشـتاءِ. وهو إذا خَافَ ـ على ما يَدَّخِرُهُ مِنَ الْحُبوبِ ـ العَفَنَ، والسُّوسَ، أو التَّنَدِّيَ من مُجاوَرَةِ بَطْنِ الأَرْضِ: أخرجَهَا إلى ظاهِرِ الأَرضِ

حتَّى تَيْبَسَ، ثـمَّ يُعيدَها. وإنْ خاف على الحَبِّ أن يَنْبُتَ من نَداوَةِ الأرْضِ، نَقَـرَ في موضِعِ القِطْمِيرِ من وَسَـطِ الْحَبَّةِ (وهو الْموضِعُ الَّـذِي يبتدِئُ منـه النبَاتُ)، ويَفْلُقُ جميعَ الحَـبِّ أَنْصافًا. فإن كان من حَبِّ الكُزْبَرَةِ فَلَقَه أرْباعًا؛ لأَنَّ أَنْصافَ حَبِّ الكُزْبَرَةِ تنْبتُ.

obeikandl.com

فالنَّمْـلُ ـ من هذا الوَجْهِ ـ في غايَةِ الْحَزْمِ، فَسُـبْحانَ المُلْهِمِ، لا إلـه غيْرُهُ. وليس شَـيْءٌ ـ مِنَ الحيوَانِ ـ يَقْـوَى عَلَى حَمْلِ ما يَكُونُ ضِعْفَ وَزْنِهِ مِرارًا غير النَّملةِ.

والنَّمْلُ يَشَمُّ ما ليْسَ له ريحٌ مِمَّا لو وَضَعَهُ الإنسانُ عِنْدَ أنْفِه لما وَجد لَهُ رِيحًا.

ومن أسـبَابِ هلاكِ النَّملةِ، نباتُ الأجنحَةِ لَهَا. فإذا صار النَّملُ كذلك، صادتْهُ العصافيرُ، وأكلتْهُ.

وفي ذلك يقولُ أبو العتاهية:

«وإذا استوَتْ للنَّمْلِ أجْنِحَةٌ حَتَّى يَطـيرَ، فقـد دَنَا عَطَبُهُ»

*****

ولمَّـا انتَهَـى «أبـو فاضـلٍ» مـن قِـراءَةِ هـذا الفصْـلِ المُعْجِبِ النَّفِيسِ، امتلأَتْ نفسُ «فاضلٍ» فَرَحًا بِما أدرَكَ من حقائقَ. وكان لهذا الدرْسِ أبلغُ الأثرِ في نفسِهِ.

obeikandl.com

١٢
في غُرْفَةِ الْمائِدَةِ

ونعـودُ إلى صاحِبَتِنا «أُمِّ مـازِنٍ» الَّتِي لَبِثَتْ في مكانِهَا مُخْتَبِئَةً، لا تُبْدِي أقلَّ حَرَاكٍ، لِنَرَى: مَاذَا فعَلَتْ؟

لقد جَهَدَهـا ما لَقِيَتْ من إرْهـاقٍ وَإِعْنَاتٍ، فَاسْتَسْـلَمَتْ لِلنَّوْمِ الْعَمِيقِ، وظلَّتْ تَحْلُمُ بالبراغيثِ الشَّـهِيَّةِ مـرَّةً، وبفَطيرةِ البُرقوقِ مرَّةً أخرى.

ولَمَّا اسـتيقظتْ من سُـباتِها، رأتْ أهْلَ البيتِ قَدْ نامُوا جمِيعًا، وسـادَ الصمتُ والسُّـكونُ، وانْطفَأَتِ الأضواءُ، فلـم يَبْقَ منها إلَّا بَصِيصٌ ضئيلٌ كان يُرْسِلُهُ القمرُ في زاوِيَةٍ من زوايا المَطْبخِ.

فتشـجَّعَتْ «أُمُّ مازِنٍ»، وخرجت مـن مَخْبَئِها باحِثَةً ـ في جميعِ الأرجَاءِ ـ عن ثَقْبٍ تنْفُذُ منه إلى خارجِ البيتِ.

ومـا زالت تسـيرُ، حتَّى وصلـتْ إلى حُجْـرَةِ الْمائِـدَةِ، وهي حُجْرَةٌ فسـيحةٌ مُنَسَّـقةٌ أجملَ تنسـيقٍ. ثم وقفَتْ واجِمَةً قَلِقَةً؛ لأنَّهَا سَمِعَتْ جَمْجَمَةً بالقُرْبِ مِنْهَا.

obeikandl.com

وظلَّتْ تُنْصِتُ؛ لتَتَثَبَّتَ مِمَّا سَمِعتْه، فطَرَقَ سمْعَهَا صوتٌ ضئيلٌ.

فهمَسَتْ «أُمُّ مازِنٍ» قائلةً:

«تُرى: من الطارقُ؟».

فسمِعَتِ الصَّوْتَ واضِحًا:

تِكْ، تِكْ؛ ثم ارتفع الصوْتُ صائحًا في هذه المَرَّةِ: رن... رن... رن...! إِيذَانًا بأنَّ الساعَةَ الثالثةُ الآنَ.

فاشْتدَّ رُعْبُ «أُمِّ مازِنٍ»، وهرَبَتْ مُسْرِعَةً، وهي لا تعرِفُ: إِلى أيـن تقصِدُ؟ ولا تهْتَدِي إِلى مَخْرَجٍ لها من ذلِكَ الْمَكانِ المُوحِشِ المُخِيفِ، وكانَ الظَّلامُ حالِكًا، والسُّكونُ يسودُ أهلَ البيتِ.

وانْسَلَّتْ «أُمُّ مازِنٍ» الصغيرةُ من تَحْتِ البابِ باحِثَةً عن مَنْفَذٍ تَخْرُجُ منه، فإِذا بها قد عادتْ من حيثُ أتتْ، وَرَجَعَتْ إِلى الْمَطْبَخِ الذي كانَتْ فِيهِ!!

١٣
في المَطبخِ

ولم يَكَدْ يَقِرُّ قَرَارُهَا في المَطْبَخِ حَتَّى أَبْصَرَتْ دابَّةً تقرِضُ تحت خِوانٍ، وهي جادَّةٌ في عَمَلِهَا، فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«ما أَشْبَهَ هذه الدابَّةَ بأُمِّ راشِدٍ وأُمِّ أدْرَاصٍ! وإن كانَتْ أضخمَ منهُمَا عَلَى أَن أَنفَهَا المُحَدَّدَ يُماثِلُ أَنْفَيْهِمَا، ولا يفترقُ عنهما في شيءٍ. ولستُ أشُكُّ في أن هذه الدابَّةَ ليْسَتْ إلَّا فأرةً، فلا أُضَيِّعَنَّ الفُرْصَةَ. ولا بُدَّ من سُؤَالِها؛ لعلَّهَا تُرْشِدُني إِلَى وَسيلَةٍ لِلخروجِ من هذه الدارِ».

ثم أسرَعَتْ «أُمُّ مازِنٍ» إلى الدابَّةِ السمْرَاءِ. ولكنَّهَا رأَتْ عينَيْنِ كبيرتَيْنِ خَضْرَاوَيْنِ تَقْدَحَانِ نارًا، فَلَمْ تَدْرِ: أَيُّ عيْنَيْنِ هَاتَانِ؟

وأرْهَفَتْ سَمْعَها، فلم تسمعْ إلَّا صوتَ الفأرةِ الصغيرةِ، وهي تقرِضُ بأسنانِها. فاستأنفتْ «أُمُّ مازِنٍ» سَيْرَها، وهي تقولُ في نفْسِهَا:

«لقد كُنْتُ واهِمَةً ـ بلا ريبٍ ـ فِي مَا حسِبْتُه؛ فقد خُيِّلَ إِلَيَّ أنني أرى عينَيْنِ كبيرتَيْنِ تَقْدَحَانِ نارًا، فلمَّا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ، لم أَعْثُرْ

obeikandl.com

لَهُمَا عَلَى أَثَرٍ، ولعلَّ سَبَبَ هذا الْوَهْمِ عائِدٌ إلى ضَعْفِ أعْصَابِي الَّتِي أَضْنَاهَا مَا بذَلْتُهُ مِنَ الجُهْدِ، وكابَدْتُهُ مِنَ العَنَاءِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ».

ثم تقدَّمَتْ إلى الفأرَةِ قائِلةً:

«سُعِدَ لَيْلُكِ يا سيِّدَتِي الفأْرَةَ!».

فقالَتْ لَهَا الفأْرَةُ مُسْتَعْجِبَةً:

«سُعِدْتِ وسَلِمْتِ يا عَزِيزَتِي... آه... إنكِ نمْلَةٌ صغيرةٌ.. فأيُّ حادثٍ أتى بك إلى هذا البيتِ الآهِلِ بساكِنِيهِ؟ لقد غرَّرْتِ بنفسِك (عَرَّضْتِها للهَلاكِ). فإنَّكِ مُسْتَهْدِفَةٌ للأخْطارِ إذا أَصْرَرْتِ على البقاءِ في هذه الدارِ، وما أَيْسَرَ عَلَى أيٍّ كان أَنْ يَسْحَقَكِ بِقَدَمِه، عن قصْدٍ، أو عن غيْرِ قَصْدٍ. فارْجِعِي إلى وَادِيكِ إن أَرَدْتِ السَّلامَةَ. فما أظُنُّكِ قَدِمْتِ إلى هُنا ـ أَيتها الشَّرِهَةُ الصغيرةُ ـ إلَّا رَغْبَةً في أن تأكُلِي من السُّكَّرِ، وأَلْوانِ الْحَلوَى، والفطائِرِ اللذيذةِ.... إني جِدُّ عارِفةٍ بِما تُؤْثِرِينَهُ من لذائِذِ الأطعمةِ!».

فقالتْ «أُمُّ مازِنٍ»:

«كلَّا يا سيِّدَتِي الفأرَةَ، ما جِئْتُ هُنَا مُخْتارَةً، بل ساقَتْنِيَ الْمقاديرُ مُرْغَمةً إلى هَذَا السِّجنِ. وقد بذلتُ جُهْدي مُتَلَمِّسَةً منْفَذًا للخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ، فلم أُوَفَّقْ في سَعْيِي إلى الْآنَ.

وَلَكن خَبِّريني ـ مُتَفَضِّلَةً ـ بكُنْيَتِكِ؛ لأُكَرِّمَكِ بِهَا إذا نادَيْتُكِ».

فقالت لها الفأْرَةُ:

«كُنْيتي ـ أيتها العزيزةُ ـ هِيَ أُمُّ دِرْصٍ».

ولـم تكَـدْ «أُمُّ دِرْصٍ» تُتِـمُّ هـذه الجُمْلَةَ، حتى سَـمِعَتْ حركةً تنبَعِثُ من رُكْنٍ مُظْلِمٍ، فرفعت «أُمُّ دِرْصٍ» أطرافَ أنفِها، وأُذُنَيْها، مُرْتاعَـةً، ثم سُـرِّيَ عنها حيـن تَلَفَّتَتْ فلم تَجِدْ شـيئًا في الحُجرةِ. فقالت ساخِرَةً:

«ما أشـدَّ غَبائـي وجُبْنـي! فإني دائِمَـةُ الْخَوْفِ مـن القِطِّ؛ لأن أُمـي طالَمَـا حذَّرَتْنا منـه، وأوهَمَتْنا أنَّ خَطرَهُ لا يُدْفَعُ، وأن بأسَـه مَرْهوبٌ.

وقـد طالما حدَّثَتْنا أحاديثَ مُفَزِّعةً عن القِطَطِ، ومصايدِ الفأرِ. وقـد حظَـرَتْ علينـا الدخـولَ في هـذا المَطبـخِ الحَافِـلِ بأشْـهى الأطْعِمَةِ... ولكنَّني لَنْ أعْبَأَ بنصيحَتِها ـ في هذه المرَّةِ ـ فقد أيقنتُ أنها تُغَالِي في الْخَوفِ والفزعِ مِمَّا لا يُخيف ولا يُفْزِعُ...

ألا ترَيْـنَ هذا البابَ أيَّتُهَـا النملةُ الصغيرةُ؟ إن خلفَه من نفائِسِ الأطعمَـةِ، ولذائـذِ المَـآكلِ المُرْتَقِياتِ، ما يُنْسِـي الْجَبَـانَ جُبْنَهُ، ويجْعَلُهُ شُجَاعًا جَرِيئًا يستَهِينُ بالأخْطَارِ، ولا يُبَالِي بالعواقِبِ...

إن فِيـهِ كثيرًا مـن ألوانِ الخُبْـزِ، والأُرْزِ، والجُبْنِ اللذِيذِ، وما إلى ذلكِ من أَصنافِ الطَّعَامِ...

ألا تَشَـمِّينَ هذِهِ الرَّائِحَـةَ الطَّيِّبَةَ؟ لَقَدْ طالمـا نَعِمْتُ باقْتِحَامِ

هذا البابِ، وأكلتُ ما شئتُ من هذه اللَّذائذِ... ثم عدتُ إلى أهلي راضيةً مسرورةً... فإن أُسْرَتِي تَقْطُنُ مُسْتَوْدَعَ القمحِ القريبَ من هذه الحُجْرَةِ حيثُ تُخفِي زادَنا منَ الجَوْزِ، وَ...».

وهنا وقفتْ «أُمُّ دِرْصٍ» عن الكلامِ؛ فقد سمعتِ الحركةَ تنبعثُ من الركنِ المظلمِ مرة أُخرى. والتفتتْ «أُمُّ مازِنٍ» فرأتِ العينَيْنِ البراقتَيْنِ الكبيرتيْنِ تَقْدَحانِ بالشَّرَرِ.

وكانتِ القِطَّةُ ـ في هذه المرَّةِ ـ قريبَةً منْهَا، فارتَجَفَتْ «أُمُّ مازِنٍ». وَلَمْ تَكُنْ قَد رأتِ القطَّ قَبْلَ هَذِهِ المرةِ، ولم تَسْتَبِنْ ـ من خِلالِ الظَّلامِ ـ إلَّا عينَيْهِ. فقالَتْ مذْعُورَةً:

«الزَمِي الصَّمْتَ، يا «أُمَّ دِرْصٍ». فإني أتوجَّسُ شرًّا، وقد خُيِّلَ إليَّ أنَّنِي أرى شيئًا مُخْتَبِئًا في بعضِ الزَّوايَا».

obeikandi.com

١٤
غُرُورُ الْفَأْرَةِ

فقالت «أُمُّ دِرْصٍ» هازِئَةً:

«هـا! ها! ها! يـا لَكِ مـن رِعْدِيدةٍ خائـرةِ العزمِ! عـلى أن مَجالَ العُـذْرِ أمامَك فسيحٌ؛ لأنك حشـرةٌ ضعيفَةُ الْحَوْلِ والطَّـوْلِ.. أما أنا فلسـتُ جديرةً أن أَخْشَـى كائنًا كان.. إِنَّنِي لا أُبالِي بالناسِ، ولا بِمَصَايِـدِ الفأر، ولا بالقِطاطِ؛ لأنني عاقلةٌ رشـيدةٌ، وإن كانت أُمِّي تأْبَى إلا أن تُعامِلَني كما تُعامِلُ طِفْلَةً صغيرَةً. ولَها الْعُذْرُ؛ فإن حُبَّ الأمهاتِ كثيرًا ما يدْفَعُهُنَّ إلى تخويفِ بناتِهِنَّ من كلِّ شـيْءٍ.. إنني جَرِيئَةُ القَلبِ يا «أُمَّ مازِنٍ»، وقد كنتُ أقرِضُ الأرْزَ أمْـسِ ـ في هَـذَا المـكانِ ـ في وَضَـحِ النهارِ أمام ربَّةِ الـدارِ، وعلى مرأَى منها... وقد شَـعَرتُ ـ أولَ الأمرِ ـ بشيء منَ الخَوْفِ، ثم عاودَتْنِي الشَّجاعَةُ... ولعلكِ لا تعرفين: ماذا فعلْتُ؟».

فقالت لها «أُمُّ مازِنٍ»: «لا، لا أعرِفُ شيئًا!».

فقالـت «أُمُّ دِرْصٍ»: «إِنَّهَـا لم تَكَـدْ تَفْتَحُ هذه الغِـرارَةَ (الزَّكيبَةَ) التـي أمامَنَا، حتى قفزتُ في وَجْهِهَا. فاشْـتَدَّ خَوْفُهَـا ولاذَتْ بالفِرارِ، وصاحتْ تَطْلُبُ النَّجْدَةَ. وسأَلْجَأُ إلى هذه الطريقةِ متَى رأيتُ قِطًّا!».

١٥
نَشِيدُ الْفَأْرَةِ

وما زَالَتْ «أُمُّ دِرْصٍ» سابِحَةً في أحلامِهَا، مُتَظاهِرَةً بالْجُرْأَةِ، مُسْتَهينَةً بالأخْطارِ، غيرَ مُقَدِّرَةٍ للعواقبِ حِسابًا. ثم ختمتْ غُرورَها مُتَغَنِّيَةً بالأُنْشُودَةِ التالِيَةِ:

حدَّثَتْ أُمِّي، وما أعْـ ـجَبَ ما قالَتْهُ أُمِّي!
«حدَّثَتْنا بِحَدِيثٍ كانَ وَهْمًا.. أيَّ وَهْمِ!

***

حَدَّثَتْنا أنَّ بَأْسَ الْـ ـقِطِّ مَرْهُوبٌ، مُخيفُ
وَهْوَ - في رأيِي - جبانٌ خائِرُ الْعَزْمِ، ضَعيفُ

***

إنْ رأى - مِثْلِي - سَبَّاقًا، توانَى عن لِحاقِهْ
أيْنَ بَأْسُ الْقِطِّ من بأ سِي؟ وسَبْقِي مِنْ سِباقِهْ؟!

***

أبْلِغوا الْقِطَّةَ عنِّي: «أنَّنِي أشْجَعُ منها
لَسْتُ أخْشاها، ولا أفْـ ـزَعُ إنْ حُدِّثْتُ عنها!».

***

obeikandl.com

لـيـتَـهـا تَـبْـدُو أَمـامِـي لِتَـرَى عَـزْمِـي، وبَـأْسِي
عَـلَّـنِـي أُلْـقِـي عليها إن أتـتْ ـ أَبْـلَـغَ دَرْسِ

***

عَـلَّـهـا تُـؤْمِـنُ أنَّ الـ ـفَـأْرَ لا تَـرْضَى الـفِـرارَا
وتَـرَى أنِّي عَـنِـيـدٌ في صِراعِـي ـ لا أُبـارَى

***

وتَـرَى مِـنَّـا ـ إذا ثُـرْ ـنَـا ـ أَشِـدَّاءَ كـرامَـا
لا يُـبـالـونَ ـ إذا ما غَضِبوا ـ الموْتَ الزُّؤَاما!».

***

obeikandl.com

١٦
نَشِيدُ القِطِّ

وما كادَتْ «أمُّ دِرْصٍ» تُتِمُّ آخِرَ كلمةٍ في هذا النشيدِ، حَتَّى امْتَلأَ قَلْبُها ذُعْرًا. فوقَفتِ المِسْكينَةُ عنِ الكلامِ، وقَفَّ شَعْرُها من فَرْطِ الرُّعبِ، وجَحَظَتْ عيناها، وصاحتْ وهي تَرْتَجِفُ:

«رَبَّاه! ماذا أَرَى؟ أدْرِكِينِي يا أُمَّاهُ! إنَّه القِطُّ. فما حِيلَتِي في دَفْعِه؟».

وأَقْبَلَ عَلَيْها القِطُّ يُطارِدُها، وَيُنْشِدُ تائِهًا مَزْهُوًّا:

«أيُّها المَغْرُورُ: أهْلا ... بِكَ إذْ جِئْتَ ـ وسهْلا
قَدْ تَمَنَّيْتَ لِقائِي ... ضَلَّةً مِنْكَ، وَجهْلا

***

أَنْتَ لِي أَفْخَرُ زادٍ ... أنْتَ لي أَشْهَى طَعامْ
فَتَأَهَّبْ لِلِقائِي ... واغْنَمِ الْمَوْتَ الزُّؤامْ».

وظلَّتْ «أمُّ دِرْصٍ» تَجْرِي في أرْجَاءِ الْمَطْبَخِ على غير هُدًى، والقِطُّ يُطارِدُها ويَسُدُّ عليها مَنافِذَ الهرَبِ، وهي تُغَوِّثُ طالِبَةً النَّجْدَةَ، فلا يُغِيثُها أحدٌ.

obeikandi.com

وكانت «أمُّ دِرْصٍ» خَفِيفَةَ الحَرَكَةِ، سريعَةَ القَفْزِ، فأَسْرَعَتْ إلى جُحْرِهَا حتى إذا دانَتْه، ولم يَبْقَ عَلَى بلوغِه إِلَّا قَفْزَتانِ، أدركَ «أبو خَداشٍ» غَرَضَها؛ فوَثَبَ عليها وَثْبَةً واحِدَةً، فإذا هِيَ بين مخالبِهِ.

وهكذا حالَ دُونَ ما تُريدُ، وبَدَّلَ أمَلَهَا يَأْسًا، وأصبحَتْ بين براثِنِ المَوتِ بعد أن كانت أقربَ ما تكونُ إلى النَّجاةِ؛ فلم تَرَ بُدًّا من مُعاوَدَةِ النِّضالِ.

openkandil.com

١٧
عاقِبَةُ الغُرُورِ

فانْسَـلَّتْ من بين أَرْجُلِ عَدُوِّهَا اللَّدُودِ، وأسرعَتْ تجْرِي بكلِّ سُـرْعتِها حتى وجدَتْ مِكْنَسـةً في زاوِيةِ الْمَطْبخِ، فاختبأتْ خَلْفَها وهي تُعَلِّلُ نَفْسَـها بكاذِبـاتِ الأمانيِّ، وتَظُـنُّ أنَّ «أبا خَداشٍ» لن يَرَاهَا. وتقولُ لنفْسِهَا نادِمَةً مَحْزُونَةً:

«ليتنـي أصغَيْـتُ إلى نُصْحِكِ يا أُمَّـاهُ! إذَنْ لَنجـوْتُ من الخَطَرِ الداهـمِ، ولكنَّ غروري أَوْرَدَني موارِدَ الهلاكِ... ولئن نجوتُ في هذه الْمَرَّةِ، لَنْ أُخالِفَ لكِ قولًا بعد اليومِ!».

ولكـنَّ آمـالَ «أُمِّ دِرْصٍ» تبـدَّدتْ، وذهبـتْ أدْراجَ الرِّياحِ؛ فقد ربَـضَ «أبو خَدَاشٍ» أمام الْمِكْنَسَـةِ، وظلَّ يترقَّبُ فريسـتَهُ، بفارغِ الصَّبْـرِ، وهـو يتحفَّزُ للفتْكِ بهـا، والانْقِضاضِ عليْهَا، وقَدْ سـالَ لُعابُهُ شـوْقًا إلَى ازْدِرادِها. وظلَّ يُمِرُّ لسـانَه على شَـفَتَيْه مِرارًا وهو فرحانُ بهذا الفَطُورِ الشَّهِيِّ الوشيكِ!

وما كادتْ «أُمُّ دِرْصٍ» تُطِلُّ برأسِهَا الصَّغيرِ، حتى انقَضَّ عليها «أَبُو خَداشٍ»، وأمسكَ بها بين مِخْلَبَيْهِ، فقالت له ضارِعَةً:

«اصفَحْ عنِّي ـ في هذه الْمَرَّةِ ـ يا أبا خَداشٍ! وإنِّي مُعاهِدتُكَ على تَـرْكِ الدَّارِ... اغْفِرْ لِيَ ـ بربِّكَ ـ هـذِهِ الزَّلَّةَ؛ فلن أعودَ إلى اقْتِرافِها بعد اليومِ».

ولكنَّ «أبا خَداشٍ» لم يُصْغِ إلَى شـيءٍ ممَّا تقُولُ، وأمْسَـكَ بِهَا بَيْنَ بَراثِنِهِ.

ولم تُطِقْ «أُمُّ مازِنٍ» أنْ تَرَى مَصْرَعَ صديقَتِهَا التاعِسَةِ الْمِسكينَةِ «أمِّ دِرْصٍ» التـي عُوقِبَـتْ عـلى غُرورِهـا وبلاهَتِها أَشْـنَعَ عِقابٍ؛ فاختبَأَتْ «أُمُّ مازِنٍ» حتى غابَ «أبو خَداشٍ»، ومعه فريسـتُهُ التي خالفتْ نُصحَ أمِّها؛ فلَقِيَتْ حَتْفَها جَزاءً وِفاقًا!

١٨
بيْنَ «فَاضِلٍ» و«كَوْثَرَ»

ولَمَّا أَصْبَحَتْ «أُمُّ مازِنٍ»، ونَفَذَ ـ إلى الْمَطْبَخِ ـ أَوَّلُ شُعاعٍ من أَشِعَّةِ الشَّمسِ الوَضَّاءَةِ، أقبلَتْ «أمُّ مازنٍ» عَلَى الْمَائِدَةِ تَلْتَهِمُ سُكَّرًا مَسْحُوقًا. وظلَّتْ تأكُلُهُ في شَرَهٍ عجيبٍ، شأنُ بناتِ جنسِها جميعًا.

وإنها لتَلتهِمُ السُّكَّرَ التهامًا، إذ سمِعَتْ صوتَ خُطُواتٍ ثقيلةٍ تَدِبُّ في الْمَمْشَى، ورأتْ «كَوْثَرَ» قادِمةً على المَطْبخِ.

فقالت «أُمُّ مازنٍ» في نَفْسِهَا:

«لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْهَرَبِ؛ حتَّى لَا تَرَانِي هذه الفتاةُ؛ فَتُهْلِكَني».

ورأت «أُمُّ مازنٍ» أمامَهَا ذُبابةً تطيرُ صَوْبَ نافِذَةٍ مفتوحةٍ، ثم تخرجُ منْهَا. فاعتزمَتْ أَن تخْرُجَ من ذلك المَنْفَذِ، وأسرعَتْ تَعْدُو (تَجْرِي) إلى النَّافِذَةِ المفتوحَةِ وَهِيَ حريصةٌ على أَن تَسْتَخْفِيَ عن عَيْنَيْ «كَوْثَرَ» التي كانت مشغولةً بإعدادِ الفطورِ.. وما زالت «أُمُّ مازنٍ» تَجِدُّ في سيرِهَا ـ بعزْمِ نَمْلةٍ ـ حتَّى وصلَتْ إلى النافِذَةِ.

ولَكِنَّهَا لَمْ تَكَدْ تبْلُغُ حافَتَهَا حتى هالَها ما رأتْ، فقد أبصَرَتْ هاوِيةً بعيدةَ الغوْرِ (شَدِيدةَ العُمْقِ) بين النافِذَةِ والأرضِ.

فحارَتْ في أَمْرِها، ولم تَدْرِ: كَيْفَ تَصْنَعُ؟!

وتراجَعَتْ ـ مِنْ فَوْرِهَا ـ خائِفَةً مَذْعُورَةً؛ حتَّى لَا تتردَّى (لا تَسْقُطَ) في تلك الهاوِيَةِ السَّحيقَةِ.

وإنها لتَهُمُّ بالعودَةِ ـ من حيثُ أتتْ ـ إِذْ طَرَقَ سَمْعَهَا صوتُ «فاضلٍ» وهو يُنادِي أُخْتَهُ «كوْثَرَ»:

«هل أعددتِ فَطورِي أيتُهَا الشَّقِيقةُ العزيزَةُ؟».

فقالَتْ لَهُ «كوثرُ» باسِمَةً:

«لقد أوشكتُ أن أنتهِيَ منه».

فصاحَ «فاضلٌ» مسرورًا:

«انْظُرِي إِلَى هذه النملةِ الصغيرةِ التي تسيرُ حائِرَةً على حافَةِ النافذةِ. لَقَدْ بحثْتُ عنها أَمسِ؛ فلم أفُزْ بطائلٍ مِنْ بَحْثِي، وَها قد عَثرتُ عليْهَا الآنَ!».

فقالتْ له «كوثرُ»:

«دَعْهَا ـ يا عزيزي ـ آمِنَةً وادِعَةً، ولا تُزْعِجْها».

فقال لها «فاضلٌ»:

«كلا، لن أُصِيبَهَا بسُوءٍ. ولكنّي حريصٌ على دَرْسِ دقائِقِ تركيبِهَا العَجيبِ».

obeikandl.com

١٩
في الْهَواءِ الطَّلْقِ

ولكـنَّ «أُمَّ مازِنٍ» كانت تُؤْثِرُ (تُفَضِّلُ) أَنْ تَمُوتَ عَلَى أن يَقْبِضَ عليْهَـا أحدٌ. فأسـرَعَتْ إلى حافَـةِ النافِذَةِ. واعتزمـتْ أن تَهْبِطَ إلى الأرضِ، كَبَّدَهـا ذلِـكَ ما كبَّدَها من عناءٍ ومُخَاطَـرَةٍ! فتقدَّمتْ إلى الحائِـطِ في صَبْرٍ وثَباتٍ، وأنشَـبَتْ أَرْجُلَها مُتَشَـبِّثَةً بِهِ. ولكنها لم تكـدْ تَخْطُو خُطُواتٍ ثلاثًا حتى انقلَبَ رأسُـها إلى أسـفلَ، واخْتَلَّ توازُنُهـا، فهـوَتْ مِنِ ارتفاعِ طابَـقٍ كامِلٍ. وقد كان هـذا الارْتِفاعُ كافِيًـا لقتْـلِ مَـنْ هُوَ أَقْوَى مـنَ النملـةِ؛ ولكنها نجَتْ مـنَ الخطَرِ ـ لِحُسْنِ حَظِّهَا ـ فقدِ اعترضَتْها ورقةُ كَرْمٍ؛ فحَمَتْها من أن تُصابَ بسوءٍ.

وانطلَقَـتْ «أُمُّ مـازِنٍ» تجِدُّ في طريقِها إلى بيتِهَـا، وقد أصبَحَتْ آمِنَـةً في الهـواءِ الطَّلْقِ.. وما زَالَتْ جادَّةً في السـيرِ حتى اقتربتْ مِنَ البيْتِ.

obeikandl.com

٢٠
فِي وَادِي النَّمْلِ

وَلَمْ تكَـدْ تَدْنُو مِنْ وَادِي النَّمْلِ حتَّى رَأَتْ مَا أدْهَشَـهَا وَهَالَهَا، وحزَنَهَا وأقْلَقَ بَالَهَا.

تُرَى.. ماذا حدثَ؟ وأيُّ خَطْبٍ أَلَمَّ بعشيرَتِها، وحَلَّ بقومِها؟

لقـد أبصرَتْ طوائِفَ النملِ خارِجَةً أسـرابًا أسـرابًا، ضارِبةً في فِجاجِ الأرضِ (طُرُقِها) على غيرِ هدًى.

فقالت «أمُّ مازِنٍ» تُحَدِّثُ نفسَها مدهوشةً:

«هذا أعجبُ ما رأيتُ في حَيَاتِي! وما أدري: لِمَ خرجتْ عشيرتي كلُّها منْ دُورِها! أتُراهُنَّ قد خرجْنَ ليُقابِلْنَنِي؟ ما أظنُّ ذلك!».

ثم أبْصرَتْ «أُمَّ مازِنٍ» صاحِبَتَهَا «بنت الشـيصبَانِ» قادِمَةً، وقد بـدَتْ عليها أمـاراتُ الارْتِبَـاكِ والْحَيْرَةِ، وكأنَّما هـي هارِبَةٌ، وقد حَمَلَتْ طفلًا صغيرًا.

فصاحتْ بها «أم مازنٍ» قائِلةً:

«سُعِدَ يومُكِ يا «بنتَ الشيصبَانِ». هأنا ذِي رَبِيبَتُكِ: «أمُّ مازِنٍ».

ألا تعرفينني؟ ما بالكِ خائِفةً وَجِلَةً؟».

فقالت لها «بنتُ الشَّيْصبانِ»:

«آهٍ لنا يا حَبِيبَتِي! ووَاهٍ من تِلْكِ النَّكْبَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِنَا أَيَّتُهَا العَزِيزَةُ!».

فَصَاحَتْ «أُمُّ مازنٍ» مُرْتَاعَةً:

«أَيَّ نكْبَةٍ تَعْنِينَ؟».

فأجابَتْهَا «بنتُ الشيصبانِ»:

«لقد هاجَمَتْنَا جُيُوشٌ كثيفَةٌ من النِّمالِ الشُّقْرِ الخَبيثةِ، وشَنَّتْ علينا غارةً شعواءَ. ولعلَّكِ تعرفين أن أولئكِ الشقراواتِ طالما خَطِفْنَ بناتِنا، وفَجَعْنَنا في حبيباتِنا.

ولقد كاثَرْنَنَا بِعَدَدِهِنَّ، وملأن السهلَ، وملَكْنَ علينَا فِجاجَ الأرضِ كلَّها. آه! ألا تسمعينَ؟ وَداعًا يا «أُمَّ مازنٍ»، فإني هارِبَةٌ؛ حتى لا أَقَعَ فريسَةً لأولئكِ الْخَبيثاتِ».

obeikandl.com

٢١
غَزْوَةُ النَّمْلِ

ولقد صدقتْ «بنتُ الشيصبانِ» في مَا قالَتْهُ؛ فَإِنَّ جيوشَ الشقراواتِ ـ من نِمالِ الأعداءِ ـ كانَتْ تتقدَّمُ إلى وادِي النَّمْلِ زَاحِفَةً تُحاوِلُ أن تكْتَسِحَ الوَادِيَ. وقد رتَّبَتْ خُطَّةَ الهُجُومِ والغزْوِ، وسارَتْ متقدِّمَةً في صفوفٍ مُتراصَّةٍ. وكان القادةُ في مقدِّمةِ الجَيْشِ مُستبْسِلِينَ في الحَرْبِ، وقد رفعوا قُرُونَهم مُهِيبِين (صائِحين) بجنودِهِم أَن تَقَدَّموا إِلى الأمامِ.. إلى الأمامِ دائِمًا!

وكانت الشقراواتُ الكبيراتُ آيةً من آياتِ القَسْوَةِ؛ فلم تَرْحَمْ صغيرًا ولم تُوقِّرْ كَبِيرًا. واضْطَربتْ أسرابُ النِّمالِ السُّودِ الصغيرةِ، وتفرَّقَ حُرَّاسُهَا أَشْتَاتًا يُغَوِّثونَ ويَسْتَنْجِدُونَ. وخَرَجَتْ جماهيرُ النَّملِ الأسودِ لِصَدِّ غارةِ الأعداءِ، وقد آلَيْنَ على أَنْفُسِهِنَّ أَن يَمْنَعْنَ وادِيَهُنَّ، ويَحْمِينَ وطَنَهُنَّ، ويَذُدْنَ عن ذَرارِيهِنَّ (نَسْلِهِنَّ)، باذِلاتٍ أَرواحَهُنَّ رخيصةً في سبيلِ حِمايةِ الأهلِ والوطَنِ!

واندفَعْنَ ـ في شجاعَةٍ وإقدامٍ لا مَثِيلَ لهما ـ يُحارِبْنَ العَدُوَّ، ويُجْلِينَ المُغيراتِ، وقد بَذَلْنَ كلَّ مَا وَسِعَتْهُ جُهُودُهُنَّ، وأَبْلَيْنَ

في الْحَرْبِ أَحْسَنَ بَلَاءٍ.

ولكِنَّ الشَّقْرَاواتِ الكَبيراتِ ظَلِلْنَ يتقدَّمْنَ إلى الأمامِ مُستهيناتٍ بكلِّ ما يتعرَّضْـنَ له من أَخطارٍ، وقد أَصْرَرْن على اقْتحامِ صُفوفِ العدوِّ وإذلالِهِ.. كلَّفَهُنَّ ذلك ما كلَّفَهُنّ، من جِهَادٍ وفِداءٍ.

وصاح صائِحُهُنَّ ـ من القادَةِ ـ وهُنَّ يتسلَّقْنَ قِمَّةَ التَّلَّةِ، ويَعْتَلِين ذِرْوَةَ الرَّبْوَةِ:

«نَظِّمْنَ صُفُوفَكُنَّ ـ يا حَفَدَةَ «الشَّيْصبانِ» ـ واسْتَلْهِمْنَ مَضَاءَ عزمِ أَسلافِكُنَّ. ولا تنسَيْنَ نصيحةَ جَدِّنا الأكبرِ «الشيصبانِ» العظيمِ، فقد أصبحَ النصرُ مِنَّا قريبًا، ولم يَبْقَ عليْكُن إِلَّا خُطُواتٌ يَسيرةٌ تَقْهَرْنَ ـ في إثْرِها ـ العدوَّ؛ وتنتصِرْنَ في هذه الْمَعْرَكَةِ الحاسِمَةِ!».

فسارتِ الشقراواتُ زاحفاتٍ على أَعدَائِهِنَّ، مُرَدِّداتٍ نشيدَ الحَربِ الذي حَفِظْنَهُ من أَسلافِهِنَّ عن جَدِّهِنَّ الأوَّلِ «الشيصبانِ» الأكبرِ.

obeikandl.com

٢٢
نشيدُ الشَّيْصَبانِ

وكانتْ جماعاتُ النِّمالِ الشُّقرِ جادَّةً في طريقِهَا إلى وادِي الأَعْدَاءِ، وهُنَّ يُنْشِدْنَ النَّشِيدَ التَّالِيَ مُتَحَمِّساتٍ:

يا بَناتِ الشَّيْصَبانِ: قَدْ أَتَى يَوْمُ الطِّعانِ
فَتَوافَدْنَ أُلُوفَا وتَجَمَّعْنَ صُفُوفَا
واعْتَلِينَ الْهَضَباتِ واقْتَحِمْنَ الْعَقَبَاتِ
ثُمَّ فَرِّقْنَ الأعادِي بَدَدًا في كُلِّ وادي!

***

يا بَناتِ الشَّيْصَبانِ: قَدْ أَتَى يَوْمُ الطِّعانِ
فَلْيَكُنْ يَوْمَ فَخارٍ وابْتِهاجٍ وانْتِصارِ
لا تَوَانَيْنَ، فإنَّا ـ إنْ تَوَانَيْتُنَّ ـ ضِعْنا
فَلْتُدَكْدِكْنَ الْجِبالا ولْتُذَلِّلْنَ الْمُحالا!

***

يا بناتِ الشَّيْصَبانِ: قَدْ أَتَى يَوْمُ الطِّعانِ

فَتَسَنَّمْنَ الوِهادَا وتَناسَيْنَ الرُّقادَا
وتَسامَيْنَ لِمَجْدِ وتَذَرَّعْنَ بِجِدِّ
وتَقَحَّمْنَ السُّهولا وتَدافَعْنَ سُيُولا!

***

يا بناتِ الشَّيْصَبانِ: قَدْ أَتَى يَوْمُ الطِّعانِ
جَدُّكُنَّ الشَّيْصَبانُ مَجْدُهُ لَيْسَ يُهانُ
إِنَّنا نَحْمِي لِواءَهْ فَلْنَمُوتَنَّ فِداءَهْ
ولْنَمُوتَنَّ كِرامَا ذَلَّ مَنْ يَخْشَى الْحِمامَا!».

***

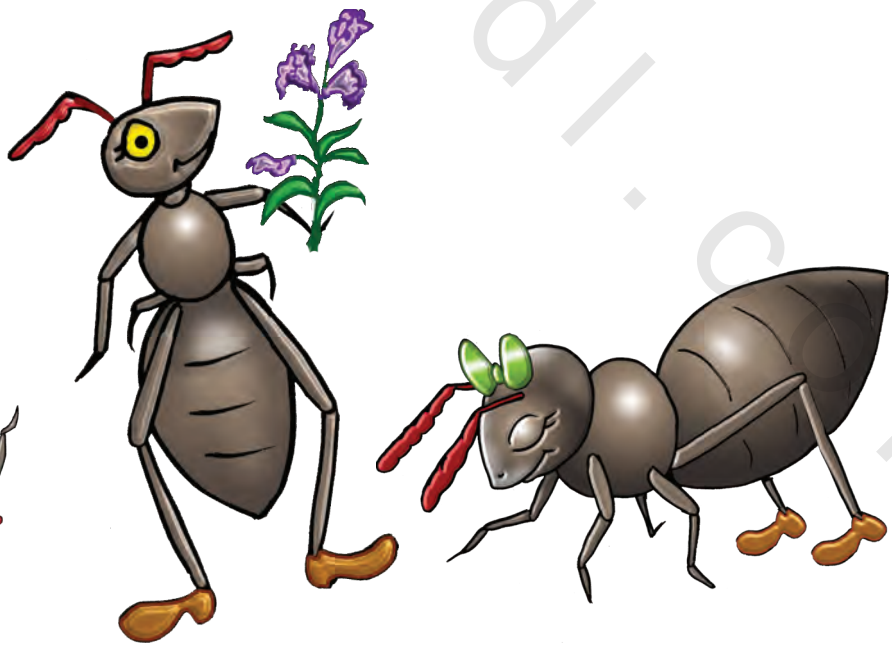

obeikandl.com

٢٣
انْتِصارُ الشَّقْراواتِ

وسُـرْعَانَ ما اقتحَمَتِ الشّـقْراواتُ وادِيَ الأعْدَاءِ باحِثاتٍ عن أطْفالِهِـنَّ الصِّغـارِ، وقد تَمَّ لَهُنَّ الظَّفَرُ، وعُدْنَ وفي فَمِ كلِّ شـقراءَ مِنْهُـنَّ دُودةٌ، أو طِفـلٌ، مـن ذَرارِيِّ النِّمالِ السـوداءِ، وهُنَّ أَعزُّ ما لدَيهِنَّ في الحَياةِ.

وهَكَـذَا انتهَـتْ تِلْكَ الحَـرْبُ الطَّاحِنَـةُ بانْدِحارِ السَّـوْدَاوَاتِ، وانْتِصارِ الشَّـقْراواتِ، وامتلأتْ سـاحَةُ القِتالِ بالقَتْلَى والجَرْحَى منَ السَّوْداواتِ، وتكدَّسَتْ أشْلاؤُهُنَّ أكْدَاسًا.

أَلا قَبُحَـتِ الحَـرْبُ! وقَبُحَ كُلُّ مَنْ يَعملُ عـلى إثارتِها وإلْهابِ نارِها!

obeikandl.com

٦٣

٢٤
مَجْمَعُ النَّمْلِ الأَسْوَدِ

وعادَتْ جُيُوشُ الشَّقْراواتِ فَرِحاتٍ بانْتِصارِهِنَّ، وقد حَمَلْنَ أسلابَ أعدائِهِن، ورَجَعْنَ بغنائِمِهن الثمينةِ. ولو رأيْتُمُوهُنَّ ـ أيها الأطفالُ الأعزاءُ ـ لرأيتُمْ آلافًا منَ القشورِ البيضاءِ سائِرَةً خِلالَ الحشائشِ الخضراءِ.

وما أَظُنُّكُمْ تَجْهَلُونَ تلك القشورَ البيضَ؛ فَهِيَ ذَرارِيُّ النِّمالِ السُّودِ التي حَمَلتْها الشقراواتُ إِلى وادِيهِنَّ البَعِيدِ.

ونعودُ إلى «أُمِّ مازِنٍ» لِنَرَى ما فعلَتْهُ في أَثْناءِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الطاحنةِ.

والحقَّ أقولُ ـ أيها القُرَّاءُ الأعِزَّاءُ ـ إِنَّ هذه النملةَ الباسِلَةَ قدِ اسْتَبْسَلَتْ في الدِّفاعِ، واستَماتتْ في سبيلِ الذَّوْدِ عنِ الوَطنِ والعَشيرةِ، وقاتلتْ في الصَّفِّ الأولِ حتى خَرَّتْ صريعَةً في الْمَيْدانِ، ورقدَتْ بين الأشْلاءِ، وهي إلى الموتِ أَقربُ منْهَا إلى الحَياةِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ جاءَتِ السَّوْدَاوَاتُ باحِثاتٍ عنِ الجَرْحَى،

واستيْقَظَتْ «أمُّ مازِنٍ» مِنْ رَقْدَتِهَا، فجَمْجَمَتْ تقولُ بصوتٍ ضعيفٍ:

«تُرَى أَيْنَ أَنَا؟»

وَرَآهَا صَوَاحِبُها وهي تُحَرِّكُ إِحدى أَرْجُلِهَا، فتقدَّمتْ إِحداهُن إِليها، وصاحتْ قائِلَةً:

«آه! ها هي «أُمُّ مازِنٍ» يا عزيزاتي! فهَلُمِّي أَيَّتُهَا الرفِيقَةُ الباسِلَةُ!».

فنَهَضَتْ «أمُّ مازِنٍ» مِنْ رَقْدَتِهَا. وبَذَلَتْ جُهْدًا شديدًا حتى استَطَاعَتْ أن تَقِفَ على أقدامِهَا، وظَلَّتْ تُحَرِّكُ أرجُلَها لِتَتَفَقَّدَها. فلمَّا اطمَأَنَّتْ بوُجُودِهَا، حَمِدَتِ اللهَ عَلَى السلامَةِ، وَقَالَتْ:

«شُكْرًا للهِ عَلَى أَنَّنِي لَمْ أُصَبْ بسُوءٍ، ولم تُكْسَرْ لي قَدَمٌ واحِدَةٌ، في هذه الحربِ الطاحِنَةِ».

ثُمَّ سارَتْ مُسْتَنِدَةً إلى إِحدى رفيقاتِها، وما زالت تتوكَّأُ عليْهَا حتَّى وصلَتْ إلى قاعَةِ الاجْتِمَاعِ، فرأتْ جمهرةً منَ النِّمالِ تتحدثُ وتُنَاقِشُ مُناقَشاتٍ حَادَّةً.

وسَمِعَتْ إِحداهُنَّ تقولُ:

«هل وضَعْتُنَّ حارِساتٍ عند السِّياجِ قبل كلِّ شيءٍ؟».

obeikandl.com

فأجابتها نملةٌ أُخْرَى:

«لـم يَفُتْنـا شـيءٌ من ذلِكِ ـ بـلا رَيْبٍ ـ فقـد وَقَفْنـا جماعةً مِنَ الحارِسـاتِ في الْجَبْهـةِ الأخـرى. وإِنـي جِـدُّ واثِقـةٍ مِـن أنَّ هذه المَأْسَاةَ الْمُفَجِّعَةَ لَنْ تتكرَّرَ بعْدَ اليومِ».

فقالت نملةٌ ثالثةٌ:

«لقـد جاءت «بنتُ الشـيصبَانِ». سُـعِدَ مسـاؤكِ أيتهـا الأختُ العزيـزةُ. خبِّرينَا.. ماذا تحْمِلِينَ؟ إِنِّي أَرَاكِ تحْمِلِينَ طِفلًا! يا لله! لقد حَسِبْناكِ في عِدادِ الهَلْكَى أيتها الرفيقةُ الكريمَةُ!».

فقالت «بنتُ الشيصبان» بعد أن وضعتْ طفلَها أمامَهُنَّ:

«أسـعد اللهُ مسـاءَكُنَّ يا عزيزاتي! ألا ترينَ أنني لـم أُضِعْ وَقْتِي عَبَثًـا؟ فقـدِ انْسَـلَلْتُ في أثناءِ المعركـةِ، وخَبَأْتُهُنَّ في ذلـكِ الثَّقْبِ الأمينِ الذي في جِذْعِ شجرةِ البُرقوقِ».

فقُلنَ لها:

«أيَّ شيءٍ خَبَأْتِ في جِذْعِ البُرقوقةِ يا بنتَ الشيصبانِ؟».

فقالت مزهُوَّةً فَخُورَةً:

«لقد خَبَأْتُ الأطفالَ الأعِزَّاءَ! فقدِ انسللتُ إلى وادينا خَمْسَ مـرَّاتٍ، وحملتُ في كلِّ مـرَّةٍ طفلًا، وها هو ذا أحـدُ الأطفالِ!

فتعالَيْنَ معي لِنُحْضِرَ البَاقِينَ».

فَارْتَفَعَتْ أَصْـوَاتُ الثَّناءِ والإعجابِ بها مِنْ كلِّ صَوْبٍ، وقُلْنَ لَهَا:

«يـا لكِ من مُرْضِـعٍ نبيلَةٍ يـا بنتَ الشـيصبانِ! فَلَـكِ مِنَّا أطيبُ الشُّكْرِ، وأَجلُّ الاحْتِرَامِ».

obeikandl.com

٢٥
خُطبَةُ «أُمِّ مَشْغولٍ»

وَأَرادتْ «أُمُّ مـازِنٍ» أَن تَعْـرِفَ عَـدَدَ القتـلَى، فاقترحـتْ عَـلَى صديقَتِها «أمِّ نَوْبَةَ» أن تُنادِيَ الأسـماءَ.. ولم تكدْ تفعلُ حتى ظَهرَ أنَّ عددَ القتلَى قد فاقَ كلَّ حِسْبانٍ.

وقالتْ «أُمُّ نَوْبَةَ»:

«لقـد هَلَكَ ـ في هـذه المَوْقِعَةِ الهائِلَةِ ـ كثيرٌ مـنَ القُوَّادِ، مِنْهُم: العُجْروفُ، والدُّعْبُوبُ، والدِّعامـةُ، والْجَفْلُ، والْجَثْلُ. وهَلَكَتِ السُّمْسُـمَةُ؛ وهي زَعيمةُ جيشِ الأعـداءِ، وقائدةُ جُموعِهِمْ. وَقُتِلَ جُمهورٌ ضخمٌ من الدَّبي: وهي تلك النِّمالُ الصغيراتُ العزيزاتُ علينا، كما هلكتْ جماعَةٌ من السماسِـمِ، وهم إِخوتُنا منَ النِّمالِ التي تعيشُ في البساتينِ. ولم يكنْ لها يدٌ في هذه الحَربِ الطاحِنَةِ، وَلَكِنَّهَـا ذَهَبَتْ فريسـةً بلا ثَمـنٍ. ولقد رأَيـتُ نَمْلَةً مُسْـتَلقِيةً على ظهرِهـا، رافِعَةً قوائِمَهَا إلى السـماءِ، وهي تَدْعُـو اللهَ أَنْ يَثْأَرَ لنا مـن الشَّـقْرَاوَاتِ الجائِرَاتِ اللَّائِـي بَغَيْنَ واعتَدَيْنَ علينَا أَشْـنَعَ اعتدَاءٍ.

فسألْتُ اللهَ أن يُجِيبَ دُعاءَهَا، ويَنْتَقِمَ لَنَا مِنَ القومِ الظَّالِمينَ».

فَوَجَمتِ النِّمالُ السوداءُ، وحزِنَتْ لِمَصارِعِ أَخَواتِها.

وَصَاحَتْ «أُمُّ مازِنٍ» مُتَأَلِّمَةً:

«لقَدْ فَتَكَ بنا النملُ الأشقرُ فَتْكًا ذَرِيعًا، وفَجَعَنَا فِي أعَزِّ صَوَاحِبِنَا، وأَبَرِّ صديقاتِنا، وأكْرَمِ أهلِينَا علينَا. ولقَدْ أثارَها علينا غارةً شَعْواءَ، وذَبحَ من السَّوْداواتِ عددًا لا يُحْصَى، ولم يَبْقَ في غُرَفِ المُرَبِّياتِ أحَدٌ. فَلْنُشَيِّعْ قتْلَانَا غَدًا ـ في احتِفَالٍ مَهيبٍ ـ إلى مَقْبَرتِنَا الَّتِي خَلْفَ السِّيَاجِ».

ولمَّا أتمَّتْ «أُمُّ مازِنٍ» كلامَها سادَ الصمتُ والحُزْنُ ساعةً منَ الزمانِ، ثم انبعثتْ أصواتٌ ـ من أرجاءِ القاعَةِ ـ تقولُ:

«اِصْغَيْنَ إلى خِطابِ أُمِّ مشغولٍ!».

فتلَفَّتَتِ النِّمالُ إلى «أُمِّ مشغولٍ»، وَهِيَ نَمْلَةٌ عامِلَةٌ مُحْتَرَمَةٌ، وقد صَعِدَتْ عَلَى ظَهْرِ نملةٍ أخرى لتُسْمِعَ رفيقاتِهَا صوْتَهَا في وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ.

وأَرْهَفَتِ النِّمالُ آذانَهُنَّ لسَمَاعِ مَا تقولُهُ «أُمُّ مشغولٍ».

وَقَدْ أنشَأَتْ تَقُولُ:

«أبنَائِي، وبناتِ أخَواتِي، وحَفَدَتِي الأعِزَّاءَ:

obeikandl.com

إنَّ هَـذَا اليَـوْمَ لَنْ يُمْحَـى من ذاكِرَتِنَا مـا حَيِينَا؛ فَهُوَ يـومُ حُزْنٍ وحِدَادٍ، وقد تَبَدَّلَ فِيهِ هناؤُنَا شقاءً، وانقَلَبَ فرَحُنَا تَرَحًا.

ولقـد أقَمْنا رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ في هـذا الوَادِي الخَصِيبِ، وقَضَيْنَا فيه عَهْدًا سَـعِيدًا مَرَّ بِنَا كَمَا تَمُرُّ أشْـهَى الأحْلَامِ، ثمَّ دالَتْ دَوْلَتُنا، ورَمَانا الدَّهْرُ ـ في هذا اليومِ الأسودِ ـ بفادِحِ الخُطوبِ والمِحَنِ... فقد رُزِئْنا في بناتِنا العزيزاتِ، وكُنَّ مَصْدَرَ سُرورِنا وإيناسِنا، ومرادَ آمالِنا وأمانِيِّنا.

لقـد قَضَيْنا الصباحَ، في مَرَحٍ وسُـرورٍ، في هـذا الوادى الجَميلِ الحَبيـبِ إلى القُلوبِ. وها نَحْنُ أُولاءِ.. نَقْضِي المَسـاءَ حزيناتٍ، مُوجَعاتٍ مُقَرَّحاتِ العُيونِ.

لقد أغارتِ الشـقراواتُ عَلَى دِيارِنَا، وانتَهَبْنَ ما تَرَكْنا مِنْ بَيْضٍ وَأَطفـالٍ أَعِزَّاءَ علينَـا، هم مَناطُ آمالِنا ومَعْقِـدُ رَجائِنَا، واتَّخَذْنَهُنَّ عبيـدًا لَهُـنَّ وأرِقَّـاءَ؛ لِيُؤَدِّيـنَ ـ في قريـةِ الأعـداءِ ـ أعمـالَ الخَدَمِ والعبيدِ، وليس لنا مِن أملٍ في عودةِ أبنائِنَا بعدَ اليوْمِ!».

فبكتْ بناتُ «الشَّيْصَبانِ» جميعًا حين سَمِعْنَ هذه الكلماتِ الداميَةَ.

وصمَتَتْ «أُمُّ مشغولٍ» لَحَظاتٍ يسيرةً، ثم استأنَفَتْ قائلةً:

«ليسَتْ هذِهِ أَوَّلَ مرَّةٍ يَدْهَمُنا فيها أُولئكَ الأعداءُ، بل هي المَرَّةُ الثالثةُ في مَا أعلَمُ. فقد أَلِفَتِ الشقراواتُ الخَبِيثاتُ أن يُغِرْنَ على وادِينَا، ويَنْتَهِبْنَ أَسْلابَنَا، ويُخَرِّبْنَ بُيُوتَنا، ويَسْتَعْبِدْنَ أبناءَنَا وبناتِنَا.

فما حيلَتُنَا الْآنَ؟ ليس لنا من حيلَةٍ إلا أن نُصْلِحَ مَا خَرَّبَتْهُ الشقراواتُ من قريَتِنَا، و...».

فانْبَعَثَ صوتٌ ضعيفٌ، من آخِرِ القاعةِ، يقُولُ:

«عُذْرًا ـ يا سيدتي أُمَّ مشغولٍ ـ واغْفِرِي لي مُقَاطَعَتِي إِيَّاكِ!

لقد تَهَدَّمَ نِصْفُ بيتِنا. ويُخيَّلُ إِلَيَّ أننا غيرُ آمنين على حياتِنا، وحياةِ ذَرارِينا. ولن نَشْعُرَ بطُمَأْنِينَةٍ في هذا الوادِي؛ فقد أَلِفَتِ الشقراواتُ أن يُغِرْنَ عَلَيْهِ، ويُفاجِئْنَنَا بأحْداثِهِنَّ بين حينٍ وآخرَ. ألا يَجْدرُ بنا ـ إِذَنْ ـ أن نبحثَ عن مكانٍ آخرَ نتخذُهُ مقرًّا لنا في غيرِ هذا الوادِي؟».

فصاحت النمالُ ـ كلُّها ـ قائِلَةً:

«لقد أحسنتِ وأصبتِ، وبِفَصْلِ الخطابِ نَطَقْتِ!».

obeikandl.com

٢٦
في الوادِي الجدِيدِ

فنهضَتْ «أمُّ مازِنٍ» قائِلَةً:

«لقد اهتديْتُ ـ فِي هَذَا الصَّباحِ ـ إِلى وادٍ خصيبٍ، في موقعٍ بَدِيعٍ، لا يبْعُدُ عنَّا كثِيرًا، وهُو في آخِرِ غابةٍ صغيرةٍ، وأرْضُهُ فِي هذه الأيامِ طينيَّةٌ رطْبَةٌ؛ فَهِيَ أصلَحُ الموادِّ لِبنَاءِ جُدْرَانِ بُيوتِنَا؛ لأنَّهَا قوِيةٌ لا تهُدُّهَا الرِّيَاحُ.

وَنَحْنُ ـ الآنَ ـ في فصلِ البُرْقوقِ، ولدَيْنا مُتَّسَعٌ من الوقت، لتشييدِ دُورِنا قبل حُلولِ فصلِ الشِّتاءِ».

فانبعثتْ أصواتٌ عِدَّةٌ قائلةً:

«لقد أصَبْتِ في اقتراحِكِ «يا أُمَّ مازِنٍ»، ونحن على رأيِكِ في ما تُقرِّرينَ».

ثم استأنَفَتْ «أُمُّ مشغولٍ»:

«ما دام اقتراحُ «أُمِّ مازنٍ» قد لَقِيَ مِنْكُنَّ قَبُولًا حَسَنًا، فإني أنْصَحُكُنَّ ألَّا تُضِعْنَ شَيْئًا مِنَ الوَقْتِ فِي مَا لا طائِلَ تَحْتَهُ.

obeikandl.com

وأرى أن تذهبَ طائِفَةٌ منكنَّ مع «أُمِّ مازنٍ» في صباحِ الغَدِ، عندما تُشْرِقُ الشَّمسُ، وتُبلِّلُ الْمُرُوجَ بالنَّدَى، لتتعرَّفْنَ موقِعَ الوادِي الجَديدِ. ولا يفوتُكنَّ ـ أيتها العزيزاتُ ـ أنَّ بِناءَ بيتِ النملِ ليس من الْهِناتِ الهيِّنَاتِ. فهل عرفْتُنَّ ماذا يَجْدُرُ بكنَّ أَنْ تَعْمَلْنَهُ منذُ الآن؟».

فتقدَّمَتْ «أُمُّ نَوْبَةَ» إلى وسَطِ القاعةِ، ثم قالت:

«إِني أَعلَمُ ذلكِ حقَّ العلمِ. فإنَّ أولَ واجِبٍ علينَا هو أن نَحْفِرَ في الأرضِ حُفَرًا واسِعةً؛ حيثُ نُنْشِئُ الغُرَفَ، ونُشَيِّدُ الأرْوِقَةَ».

فقالت «أُمُّ مشغولٍ»:

«صدقتِ يا «أُمَّ نوْبَةَ». فهل وَعَيْتُنَّ ذلكِ أَيَّتُهَا الصغيراتُ العزيزاتُ؟

ولا يَفُوتُكُنَّ أنْ تُنْشِئْنَ ـ في بيتِنَا الجديدِ ـ حُجُراتٍ لتربيةِ الأطفالِ، عَلَى غِرارِ الحُجُراتِ التي أنشأْنَاهَا في بيتِنَا القدِيمِ. وليكنْ فيه قاعةٌ كَبيرَةٌ للاجْتِمَاعِ».

فقالت «أُمُّ نوْبَةَ»:

«نَعَمْ! يَجْدُرُ بنا أَن نُشَيِّدَ القريَةَ الجديدةَ عَلَى نَسْقِ تلك القريةِ القديمةِ، فنجْعَلَ فِيهَا تعارِيجَ تُعَوِّقُ سَيْرَ المَطَرِ عَنْ دُخولِ

القريـةِ، ونُشَـيِّدَ طابقَيْـن: واحِدًا فـوق الآخَرِ؛ حتـى نَأْمَنَ على ما نَدَّخِـرُهُ في قريتِنَا من البلَلِ، ونُشَـيِّدَ فيها منازِلَ ودَهاليزَ وحُجُراتٍ مُعَلَّقَةً؛ لِنَمْلأَها حُبُوبًا وذَخائِرَ لفصلِ الشتاءِ القادِمِ».

فقالَتْ «أُمُّ مشغولٍ»:

«لقـد وهبَنَـا اللهُ ـ سـبحانَهُ ـ آلاتٍ ثمينـةً لأداءِ هـذهِ الأعمـالِ الجليلَـةِ. فلتحْفِـرْ كلُّ واحِـدَةٍ ـ منْكُـنَّ ـ أرْضَ القريـةِ الجديـدةِ بقوائِمِهَا السِّتِّ، ولا تُضِعْن شيئًا من أَوْقاتِكُنَّ عَبَثًا».

فصاح شَبابُ النملِ:

«السَّمْعُ والطَّاعَةُ لكِ يا «أُمَّ مشغولٍ»!».

٢٧
خاتِمةُ القِصَّةِ

ثم استأنَفَتْ «أُمُّ مشغولٍ» قائِلَةً:

«لَقَدْ حانَ وَقْتُ التَّفَرُّقِ بعد أَن جَنَّ اللَّيْلُ، وبَقِيَتْ لِي كَلِمةٌ أُفْضِي بها إِليكُنَّ قبل أَن يَنْفَضَّ هذا الاجْتِماعُ الحاشِدُ:

لقد كانَتْ فِكْرةُ الهِجْرَةِ من اقتراحِ «أُمِّ مازِنٍ».. تِلك النَّمْلَةِ الصغيرةِ التي فاقتْ ـ على صِغَرِها ـ كُلَّ نِمالِ القريةِ ذَكاءً.

وَعِنْدِي أَنَّهَا جديرةٌ أَن تُصْبِحَ مُهَنْدِسَةَ البيتِ، ومديرةَ العملِ في إنشائِهِ. فماذا تَرَيْنَ في هذا يا بناتِ الشيصبانِ؟».

فصاحتِ النِّمالُ كلُّها، وهي ذاهِبَةٌ إِلى غُرُفاتِ النومِ:

«أَصَبْتِ يا «أُمَّ مشغولٍ»، وَوُفِّقْتِ إلى الصَّوَابِ، وأُلْهِمْتِ الرُّشْدَ والسَّدادَ. فَلْتَحْيَ «أُمُّ مازِن»! فَلْتَحْيَ «أُمُّ مازِنٍ»!».

obeikandl.com

إلمامة بالنمل

«قبسنا هذا المقال النفيس من دائرة المعارف الفرنسية؛ ليكون مرجعًا للمدرس في تدريس قصة «أم مازن».

خواص النمل

النمل حشرات صغيرة من الفصيلة المجنحة، وهو اجتماعي، شديد الألفة بطبعه، ومتى استثنينا منه أنواعًا قليلة شاذة، رأينا سواده يخضع لهذا القانون العام، وتنطبق عليه هذه الصفات.

وتأتلف كل مجموعة من النمل عادة من أنواع ثلاثة: النمل العامل، والذكور، والإناث المجنحة. تتلخص صفاته وخواصه العامة في ما يلي: جسم مستطيل يتفاوت طولًا وقصرًا، ولون غامق يتألف من أصفر وأحمر وأسمر وأسود، أو مزيج من هذه الألوان كلها أو بعضها بنسب متفاوتة.

أما رأس النمل، فهو يختلف تبعًا لاختلاف أنواعه وفصائله، وهو قطعة مفصلية ذات فتحتين، إحداهما: فتحة صغيرة عند نقطة اتصال الرأس بالظهر، وتسمى: الفتحة الخلفية. والثانية من الأمام، وهي فم النملة، وبها فكَّان قويان، يتألف منهما ـ على الأغلب الأعم ـ شكل مثلث. وكلاهما محدد، تشبه حافته الداخلية حد المنشار.

ولهذين الفكين ـ عند النمل ـ شأن أي شأن، فهما عظيما الخطر؛ لأنهما سلاحه القوي، وعتاده الثمين الذي يستعين به على العمل، فهو يستخدمه كما نستخدم المنشار والمقص والكماشة لنزع الأشياء وتمزيقها، وكما نستخدم اليدين في حمل الأثقال وما إلى ذلك. وليس من عمل الفكين مضغ الأغذية، فإن النمل لا يتغذى بغير المواد السائلة أو شبه السائلة، وليس في قدرته أن يزدرد طعامه ـ كما نفعل ـ ولهذا نرى أن هذين الفكين يؤديان أعمالًا أخرى ـ كما أسلفنا ـ غير المضغ.

obeikandl.com

أجسام النمل

وعيون النمل منحنية، وقلما تكون مستديرة، أو منتظمة أي انتظام. وعيونه الملس على شكل مثلث عند الذكور والإناث. ويندر أن نراه عند العاملات التي لا تكاد ترى في رأسها ـ أحيانًا ـ غير واحدة في منتصف جبهتها.

أما قرونه الناتئة، فهي متحركة إلى انحناء، ترتكز على الحافة الداخلية لشرايين الجبهة.

ولا توجد الأجنحة إلا عند ذكور النمل وعذاراه. وبطنه منقسم إلى سبع حلقات للذكور، وست للإناث والعاملات. وتنتهي كل رجل من أرجل النمل بخمسة أجزاء، في آخر جزء منها إبرتان بسيطتان محددتان، يفصلهما شعر قصير كثيف. ويتميز النمل المجنح، الذكر عن الأنثى، ببطنه ذي السبعة مفاصل، ورأسه الصغير الكروي ذي العيون الملس.

وللإناث أجنحة كذلك. ولكنها تزيلها بعد الإخصاب، سواء اجتثتها بنفسها، أو انتزعتها منها العاملات.

وتمتاز النمال العاملة بتجردها من الأجنحة. وتشرك الإناث في أن في طرف بطنها غدتين سميتين، تفرزان حمض النمليك. وبعضها مسلح بإبر ملس أو محددة، ينبعث منها السم في الجرح الذي تحدثه. وقلما توجد هذه الإبرة عند جمهرة كبيرة من النمال الأخرى. فإذا وجدت فهي بسيطة تافهة لا خطر لها، وإن كانت تنفث السم إلى مسافة بعينها، متى لمست النملة عدوها بطرف بطنها.

طوائف النمل

وفي كل واد من وديان النمل نرى العاملات أكثر ما في الوادي عددًا، بالقياس إلى الذكور والإناث التي لا تلتقي معًا إلا في فترات بعينها من السنة، مع استثناء الإناث المخصبات من هذه القاعدة. وثمة فرق كبير بين النمال في أجسامهن؛ فقد يدق بعضها، ويصغر جسمه، ويتناهى رأسه في الضآلة، بالقياس إلى جسمه، بينما يكبر جسم بعض النمال الأخرى، ويضخم رأسه؛ ليتناسب مع حجم جسمه.

وفي وادي النمل تختلف أعمال

obeikandi.com

العامـلات وأعباؤها، فينـاط ببعضها بناء الغرف والأحجار، ويناط بالبعض الآخـر تربية الديدان الصغيرة، وما إلى ذلك من الأعمال.

أمـا النمـال الكبيـرة الـرأس، فـإن لها قرونًـا قوية، ومن سـوادها يتألف جيش النمال الذي يحمي الوادي من غـارة المعتدين، وقد أطلـق على هذه الفئـة من النمل اسـم: الجنـود، وهي تقوم بحروب وانتصـارات رائعة على أعدائهـا، وتأتـي بالأسـرى إلى واديها فتسـتعبدها، وترهقها بـكل ما تحتاج إليه في واديها من الأعمال.

ويختلـف النظـام الغذائـي للنمـل، سـواء في ذلـك الأطفـال الناشـئون والشـيوخ الفانـون، اختلافًـا عظيمًا. ولا يشـذ عـن هـذه القاعـدة إلا أفراد غايـة في النـدرة، لا تبـالي أن تـأكل ما تلقاه في طريقها من الأعشاب والمواد الحيوانية.

ومهمـا يكن من أمر، فـإن فم النملة ـ بطبيعـة تكوينـه ـ لا يسـمح لهـا أن تتغـذى بغيـر الأطعمـة السـائلة ـ أو نصف السـائلة ـ التي تلعقهـا، أو تمر عليهـا لسـانها حتـى تلينهـا، وثمة لا تسـتطيع أن تأكل الأطعمـة الجامدة. وقصـارى مـا تفعلـه بهـا أن تمزقهـا بفكيهـا، ثـم تمتـص مـا تحتويـه ـ في أثنائها ـ من عصير.

أمـا أشـهى غـذاء تؤثـره النمـال، فهـو أحشـاء القنائـص ذات العصير، واللحـوم الطريـة، ورحيـق الأزهار، ولـب الفواكـه الناضجـة المشـققة، والمواد العسلية واللزجة، والأشربة، والسـكر على اختلاف أنواعه، وما إلى ذلك من ألوان الأغذية.

مزايا النمل

ولقـد لفتت مزايا النمـل ـ منذ أقدم العصـور ـ جميـع الباحثيـن الذيـن عنـوا بدراسـة الحيوان والحشـرات، واسـترعت انتباههـم، وآيـة ذلـك ما ورد في الأقـوال المأثـورة عن الأنبياء والفلاسـفة الأقدميـن في العصـور الغابرة السـحيقة، فقد تجلى إعجابهم بمزايـا النمـل، وإكبارهـم مواهبـه وافتتانهم بمثابرته وجلده، وقدرته عـلى العمـل، وذكائـه، ومـا ألهمه من تعـرف بعضه بعضًـا، وتبصره وبراعتـه في دقائـق الهندسـة،

obeikandl.com

واضطلاعه بجلائل الأعمال.

وقد نوه «شيشرون» ـ في العام السادس بعد المائة قبل الميلاد ـ بهذه الميزات الباهرة، وسار على منهاجه كثير من العلماء، وأقنعتهم بهذه الحقائق بحوثهم الصادقة الموثوق بها، وتجاربهم التي أجروها في القرون المتعاقبة، حتى أصبحنا اليوم نؤمن بصدق هذه المزايا إيمانًا وثيقًا لا يتسرب إليه الشك، ونكبر ذكاء النملة وذاكرتها العجيبة التي تهديها إلى تعرف بعضها بعضًا، وتبادل المراسلات في ما بينها، والتكاتف على أداء الواجبات والفروض المشتركة التي تضطلع بها جميعًا.

مساكن النمل

وتعيش أسراب النمل كلها ـ إذا استثنينا منها بعض شواذ نادرة ـ في مساكن مشتركة، يطلق عليها اسم: وادي النمل، وهي ـ على الأغلب الأعم ـ مؤلفة من طبقات عدة، ذات أروقة، وغرف للتهوية، وغرف للفقس وتربية البيض والعذارى، وفي بعض الأحايين

ترى فيها مخازن للزاد.

وقد قرر أحد العلماء عام ١٨٨٥ في كتابه عن النمل، ما يلي:

إن فن النمال ـ في بناء مساكنها ـ يختلف باختلاف أجناسها؛ فإن لكل نوع بعينه طريقة بعينها في بناء بيته وتنسيقه. وتستطيع العين المجردة دائمًا أن تميز النملة العاملة التي تحفر الغرف والأروقة والمساكن. ومما يسترعي الانتباه: شخصية المهندس الذكي من النمال وطرائقه في هندسة البيوت، وهي تخالف طرائق اليعاسيب والنحل في بناء خلاياها. فإن مهندسي النمل لا تعمل بالمثلث والبيكار، ولا تعنى بقياس الخطوط المستقيمة والزوايا، بل هي تعمد إلى مسايرة ميلها وإلهامها، والاستسلام لغريزتها وابتكارها. وهي ترتجل ـ من فورها ـ نظام البيت الذي تسكنه، وتنشئه مبتدعًا على غير نهج مرسوم، أو خطة بعينها، أو هندسة مقررة. وثمة نرى غرفها وأروقتها ودهاليزها وسراديبها كثيرة التنوع، مختلفة الأوضاع، متباينة الأشكال. ولكن مجموع البناء، على اختلاف

obeikandi.com

طرائقه وخططه، مطبوع على الدقة والتناسق. وهو ينم ـ في كل أوضاعه ـ على عبقرية مبتكريه، وحذقهم في الهندسة، وتفننهم في أساليبها.

وإن دهشتك لتشتد، ويتعاظمك العجب، حين تنعم النظر في أساليب العاملات الصغيرات في بناء البيوت، واستعدادها الداخلي، وتنوع الطرق والمعدات التي تلجأ إليها؛ إذ تحفر أروقتها تحت الأرض، وتوصلها بسطحها عند فتحة تعينها، أو عدة فتحات. وقد تنتهز فرصة سانحة لبناء واديها تحت صخرة منبسطة تتحصن بها. وربما أنشأت على بيتها قبة أو تلة أو ربوة مكونة من مواد مختلفة، كالحشائش اليابسة وأعشاب النبات وسوقه، وما إلى ذلك.

ومن النمال ما يحفر الخشب، أو ينقشه، ويهيئ غرفه! بعد أن يصنع عجينة يستعملها في تنفيذ أغراضه. وربما عمدت النمال إلى اتخاذ بيتها بين الأخاديد أو الأعشاب المرتفعة، أو في ثنايا أوراق الشجر الكثيفة الملتفة، أو ثقوب الأشجار وفجواتها الطبيعية، وما إلى ذلك. وقد يصل

ارتفاع التلال والكثبان التي تأوي إليها النمال، وتتخذ فيها بيوتها، إلى علو متر أو مترين من القطر إلى القاعدة. وربما شيدت مرتفعات متماثلة ـ وإن لم تكن في مثل هذا العلو ـ على طول الطريق أو موازية لسياج طويل من الأعشاب. وقد تنشئ مساكنها في ثنايا الصخور المشقوقة وأسوار المنازل، وربما أنشأتها داخل البيوت، أو في ثقوب الخشب، أو في جذوع الأشجار القديمة.

تلاقح النمل

وفي زمن بعينه من كل عام ـ يختلف تبعًا لاختلاف أنواع النمل ـ يخرج الذكور من واديهم جماهير وطوائف، وتخرج الإناث متهيئات للإخصاب في ذلك الوقت، فيطير الذكور في أثرها، ويلتقي الفريقان في الجو، ويتم هذا التلاقح ـ عادة ـ في وقت حار.

ومتى كان الذكر أكبر من الأنثى بكثير، لجأ إلى الإخصاب في الهواء حيث تحمله الأنثى على ظهرها. فإذا تناسب جسمه وجسمها، فإنه يقبض عليها، وهي

obeikandi.com

طائـرة، ثم تتم عمليـة الإخصاب على الأرض، ولا تلبـث عمليـة التلقيـح ـ عادة ـ إلا بضـع دقائق. ثم يأتي ذكر آخر فيلقح الأنثى نفسـها مرة أخرى. ومهمـا يكن مـن أمر، فـإن الذكـور ـ بعـد أن تتـم تلقيح الإناث ـ تظل هائمة تعتسف الطريق على غير هدى، وقد امتلأت نفسـها يأسًـا، وأحسـت ـ في أعمـاق نفسـها ـ أنها قد أصبحت متبطلـة، عديمة الجدوى. ثم لا تلبث أن يقتلهـا الغـم والأسـى، أو تلتهمها الطيور وسباع الحشرات!

أمـا الإناث فتهوي إلى الأرض ـ بعد أن تتـم عمليـة الإخصـاب ـ وتقطـع أجنحتهـا الضعيفة، ثـم تذهب النمال العاملـة باحثـة عـن هـذه الإنـاث، فتجمعهـا ذاهبـة بهـا إلى واديها الذي خرجت منه.

وإذا رأينـا في عالـم النحـل ملكـة واحـدة مخصبـة، فإننـا نـرى ـ عـلى العكـس مـن ذلـك ـ في وادي النمـل كثيـرًا مـن الإنـاث المخصبـات في وقـت واحـد، ومـكان واحـد، وهـي تعيش جميعًا عـلى أتم وفاق وأسـعد عيـش، وتقـوم العاملات بخدمتهـن والعناية بأمرهـن، من غير أن تميـز واحـدة منهـا عـلى الأخرى. وتظـل النملة ـ بعـد عمليـة التلقيح ـ مخصبـة طـول حياتهـا، فـلا تحتـاج إلى تلقيـح الذكور مرة أخـرى. وتظل ثماني سنوات أو تسعًا وهي قادرة على البيض، دائبة عـلى تنمية عدد المواليد في قرية النمل بلا انقطاع.

أمـا بيـض النمل فهـو يماثـل ـ عند وضعه ـ حبوبًا طويلة بيضًا، أو صفرًا، أو غامقة اللون. ومتى وضعته الإناث المخصبـات، جـاءت العامـلات فجمعتـه ورتبتـه أكوامًـا صغيـرة. ولا تفتـأ تلعقـه، حتـى يكبـر حجـم البيض ـ بفضل عنايتها ـ ويشف لونه، ثم يفقس، فتخرج من كل بيضة دودة. وهـذه الديـدان مختلفـة الأشـكال تبعًـا لأنواعهـا. ولكنهـا ـ عـلى تباين أجناسـها ـ عمي، بيض، في جسم كل منهـا اثنـا عشـر حـزًّا تبـدو للفاحص المتأمل، ورأسـها أصغر من جسـمها بكثير، وهو مائل إلى الأمام.

أما قسمها الأعلى، فهو ضيق مقوس ينتهـي بطـرف دقيـق. وأمـا أسـفل جسـمها، فهو مسـتدير منتفـخ قليلا.

obeikandi.com

وليس في استطاعة هذه الديدان أن تتغذى إلا إذا تعهدتها العاملات بالغذاء، ونفثت في أفواهها عصيرًا مغذيًا مما تدخره في بيوتها لهذه الذراري الناشئة.

ولا تقتصر العاملات على هذا القدر من العناية، بل تزيد عليها، فتعنى بتنظيف هذه الديدان، ونقلها من مكان إلى آخر في أرجاء الوادي، في الأوقات المختلفة من النهار، لتقيها غوائل البرد والرطوبة، وتعرضها لأشعة الشمس الحارة التي تكسب أجسادها الحياة والقوة.

ومتى اجتازت الديدان دور النمو، استحالت إلى عذارى. ولن تتم هذا الدور قبل أن تنقضي عليها فترة تتفاوت بين شهر وتسعة أشهر. فإذا تم نماؤها ظهر جسمها عاريًا، أو ملفوفًا في قشرة حريرية تحوي ـ في أثنائها ـ تلك الحشرات كاملة.

جماعات النمل

وجماعات النمل ـ في أغلب حالاتها ـ جماعات بسيطة مؤلفة من أفراد متماثلين. وربما رأيت أفرادًا

من النمل متبطلين لا صناعة لهم، ولا عمل يشغلهم، وليس في قدرتهم أن يسهموا ـ مع أبناء جنسهم ـ في الاضطلاع بعبء من الأعباء، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء البناء أو تعهد الديدان بالتربية. وقد يشتد بهم العجز والقصور، حتى يعجزوا عن تغذية أنفسهم.

وثمة نشأت حاجتهم إلى مساعدات وخادمات يقمن بأداء الأعمال المنزلية في وادي النمل ومساكنه. وقد حفزتهم هذه الحاجة الشديدة الملحة إلى الإغارة لجلب الأسرى واستعباد الأرقاء. وهي لا تألو ـ في سبيل ذلك ـ جهدًا، وتعنف وتشتد في تحقيق رغباتها؛ فتستولي على العذارى، وتغير على الديدان التي لم تخرج بعد من غلافها، فتنقلها إلى مساكنها، ولا يلبث النمل الصغير أن يخرج من قشوره، ثم يصبح طوع إرادة سادته المغيرين، ويلبي أوامرهم ورغباتهم بلا تردد، من غير أن يعرف أنه قد قسم له أن يكون فريسة اعتداء الجائرين، وجشع المستبدين.

وهذه الطائفة من الجماعات

obeikandi.com

النملية الغريبة، يروي لنا التاريخ عنها غرائب خطيرة، ويحدثنا عن عجائب البيوغرافية النملية التي تَبْدَهُ الباحثين الذين يطلقون عليها «جماعات النمل المختلطة». وإنما أسموها كذلك؛ لأنها مؤلفة من الرؤساء وأتباعهم من الأرقاء المستعبَدين، حيث يعيشون في واديهم على أتم وفاق.

وترى في ذلك الوادي ـ عادة ـ نملة أو جمهرة من النمال المخصبات، وإلى جانبهن العاملات، فإذا حان فصل النتاج رأيت النمال المخصبة من الجنسين كليهما.

أما النمال التابعة المستعبدة، فليست ـ على الحقيقة ـ إلا عاملات، لا همَّ لها إلا خدمة النوع، والتفاني في أداء ما تحتمه المصلحة، وتوجيه نشاطها ومهاراتها إلى خير هذه المستعمرة، وخدمة الجماعة النملية، دون أن يكون لها، في ذلك كله، أي نفع ذاتي تصيبه من هذه الجماعة.

وللنمل صلات وثيقة ببعض الحشرات، سواء منها ما يعيش في واديه، وما يذهب النمل للبحث عنه في خارج الوادي، ولعل أحب

تلك الحشرات الخارجية إلى نفسه هي البراغيث التي يمتص النمل من أجسادها سائلًا سكريًّا، يرى فيه أشهى طعام يحبه ويؤثره على كل غذاء!

آراء بعض الباحثين

ويقول بعض الباحثين الثقات: إن النمل لا يخزن مؤونة له، وإنه يهلك في أوقات البرد القارس أو ينتفخ، ويقرر آخرون من الحكماء عكس هذا، وقد وصفوا هذه الحشرة ـ منذ أقدم العصور السحيقة ـ بأنها رمز التبصر، ومثال الادخار، وفي هذا الكلام تناقض في ظاهره، وإن كان من السهل على الباحث أن يوفق بين هذه النقائض، ويوائم بينها؛ لاختلاف أنواع النمل وأجناسه، فإن ما يصدق على فئة بعينها من النمل، لا يصدق على غيرها من الأنواع. فليس من سبيل إلى الشك في أن نمال المناطق القطبية والمناطق المعتدلة تخالف نمال المناطق الحارة أشد الاختلاف.

وإن الباحث المتأمل في طبائع النمل ليجد ـ على الحقيقة ـ أنواعًا منه تسمى: «النمال الحاصدة».

obeikandl.com

وهي قادرة على تحمل البرد القارس، والسعي إلى رزقها، وجلب مؤونتها في الشتاء، كما يرى ذلك في جنوب أوربا. فإن هناك نوعين يكدسان في نهاية الوادي ما يدخرانه من الزاد في غرف خاصة تحوي من الحبوب والغلال والنباتات شيئًا كثيرًا، وربما وجد فيها كثير من جنى الحقول والحدائق؛ لتكون زادًا للنمل عند الحاجة.

النمل والحرارة

وقد كتب أحد العلماء أن أول ما يمتاز به النمل ـ من الوجهة الجغرافية ـ اتساع مساكنه، وتعدد جماعاته، وتنوع فرقه. وأن النمل يكثر تبعًا لاشتداد الحرارة. فكلما دنوت من خط الاستواء، رأيت ازدياد أنواعه، حتى لتبلغ في المنطقة الحارة أقصى حد، ولا تكاد تصل إلى الدرجة الخامسة والستين من خطوط العرض، حتى تختفي أنواع النمال قاطبة.

وقد اهتدى الباحثون إلى نحو ألفي نوع من النمال، منها زهاء مائة وعشرين تقريبًا تعيش في أوربا.

أما أقدم نوع عرف من النمال، فهو النملة الشقراء، وهي لا تكاد تعرف موطنًا لها إلا في الغابات الكبيرة. وهذه النملة جريئة مشاكسة، ميالة بطبعها إلى الخصومة واللدد، مغرمة بالعداء والحرب. وهي تقذف بسمِّها إلى مسافة بعيدة، تبلغ ستين سنتيمترًا ارتفاعًا.

وثمة نوع آخر غريب منها، يستولي على وديان النمل، بعد أن يطرد ساكنيها. وهناك نمال أخرى تعيش في جوف الأرض، ولا يكاد يعرف عن طبائعها شيء.

وهناك نوع من النمال يعيش في إفريقيا الاستوائية الغربية (سيراليون والكاب وما يجاورهما من الأصقاع). وهي عُمْيٌ، تتحاشى ضوء النهار، وتكثر من الرحلات، ولا تتخذ لها مقامًا ثابتًا، وكلما نزلت مكانًا، أو حلت محلة، حفرت لها موئلًا تحت الأرض بسرعة نادرة، وهي لا تمشي إلا في الأيام الغائمة التي لا تطلع فيها شمس، أو في الأمسيات والليالي. وتؤلف، في أثناء سيرها، كتائب هائلة، ولا يصدها عن

obeikandi.com

غايتها أي حائل، ولا تثنيها أي عقبة.

وهذه النمال هي مصدر من مصادر الرعب الذي يستولي على زنوج إفريقيا من سكان تلك القرى؛ فإنها تضطرهم فى أكثر الأحايين إلى مغادرة أكواخهم حين تغير عليهم! ولا يزالون يرقبون ابتعاد كتائبها بفارغ الصبر!

وهناك أنواع أخرى من النمال المنتشرة في جميع أنحاء العالم لا سيما في « فلوريدا» و«كولورادو» و«تكساس» و«المكسيك الجديدة» التي استرعت نظر «داروين»، للمرة الأولى، في عام ١٨٦١، إذ نشر عنها أحد العلماء ملاحظاته العجيبة، ثم توالى الباحثون في درسها بعد ذلك.

وهذه الحشرات عجيبة حقًّا؛ فهي تستطيع أن تزرع الأرض، وتبذر البذور، وتحصد الزرع، وتزيل من حقلها كل نبات آخر يعوق نمو تلك البذور.

نمال البرازيل

وهناك نمال مفترسة شتى، كثيرة الأنواع، تكثر في «البرازيل» و«جوانة» وجميع أرجاء «أمريكا

الوسطى»، وهي رحالة بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة، فهي لا تقر في مكان بعينه، وهي دائبة السفر من جهة إلى أخرى، فإذا مشت سارت صفوفًا متراصة، وربما أوفدت من كتائبها فرقة كشافة لتستطلع الأرجاء المجاورة، وتجوس خلالها، وتفتش كل ثغرة فيها، وكل ورقة ساقطة، وكل عود من الحشائش، فإذا تم لها ما تريد، بدأت الغارة شاملة عامة، واقتحمت كتائب النمال كل ما يصادفها في طريقها، ومزقت ما يعترضها في سبيلها من الحشرات والعناكب والديدان، وربما فتكت أيضًا بصغار الثعابين!

فإذا اعترضها في طريقها منزل مأهول، اقتحمته كتيبة منها، فشردت سكانه كل مشرد، ولم يروا أمامهم إلا الفرار من هذا العدو الباطش المدمر!

ومهما تحدثه هذه النمال القوية المتوحشة من أضرار، فإن ما ينجم عن إغارتها من الفوائد ينسي السكان كل ما تكبدوه من خسائر وأضرار، فهي تفتك بالعقارب، والعناكب، والبعوض، والثعابين، والفأر، وما إلى

obeikandi.com

ذلك من الحشرات الضارة، فتطهر المكان الذي تحل فيه تطهيرًا! ولهذا يزعمون أن الأهلين ـ في بعض هذه الأقاليم ـ يرقبون إغارة هذه النمال عليهم بفارغ الصبر! ويعدون مقدمها ـ على ما فيه من أضرار ـ نعمة وبركة، وخيرًا عميمًا.

نمل العسل

وهناك نوع من النمال يعرف في بلاد «المكسيك» باسم: نمل العسل، وهو يعيش في وديانه: جماعات مؤلفة من الذكور والإناث والعاملات والعاملين، وبعضه يشبه ـ في مظهره ـ النمل العادي، والبعض الآخر يخالفه؛ لانتفاخ بطنه انتفاخًا شديدًا، وإنما كان كذلك لإفراطه في الغذاء.

أما لون بطنه، فهو شفاف عنبري، وهذا النوع بطيء الحركة، لا يكاد يتحرك من مكانه، فهو يظل جامدًا ملتصقًا بعضه ببعض تحت الأرض. وفي بطون هذه النمال شراب سكري، غير مبلور، يماثل طعمه العطري طعم عسل النحل، ويقبل هنود المكسيك على هذا الشراب السكري، في شراهة عجيبة، ويتحلبونه في أفواههم كأشهى غذاء، ويمزجون به بعض أطعمتهم لتكون من أفخر أنواع الحلوى.

obeikandl.com

محفوظات

النَّمْلَة

لَوْحٌ مُخْتارٌ مِنْ كِتابِ «نَهْجِ البلاغَةِ».

انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ ـ فِي صِغَرِ جُثَّتِها، ولَطافَةِ هَيْئَتِها، لا تكادُ تُنالُ بلَحْظِ البَصَرِ ـ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِها، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِها: تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إلى مَسْكَنِهَا، وَتُعِدُّها في مُسْتَقَرِّها.

تَجْمَعُ فِي حَرِّها لِبَرْدِها، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِها، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِها (طاقَتِها وَكِفايَتِها).

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجارِي أَكْلِها، فِي عُلْوِها وَسُفْلِها، وَفِي الْجَوْفِ مِنْ شَراسِيفِ بَطْنِها (أَطْرافِ الأَضْلاعِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الْبَطْنِ)، ومَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِها وَأُذُنِها لَقَضَيْتَ ـ مِنْ خَلْقِها ـ عَجَبًا، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِها تَعَبًا.

obeikandl.com